سُورَةُ الحُجُرَاتِ

دُسْتُورُ الوِجْدَانِ وَبِنَاءُ المُجْتَمَعِ المؤَدَّبِ بِالوَحْيِ

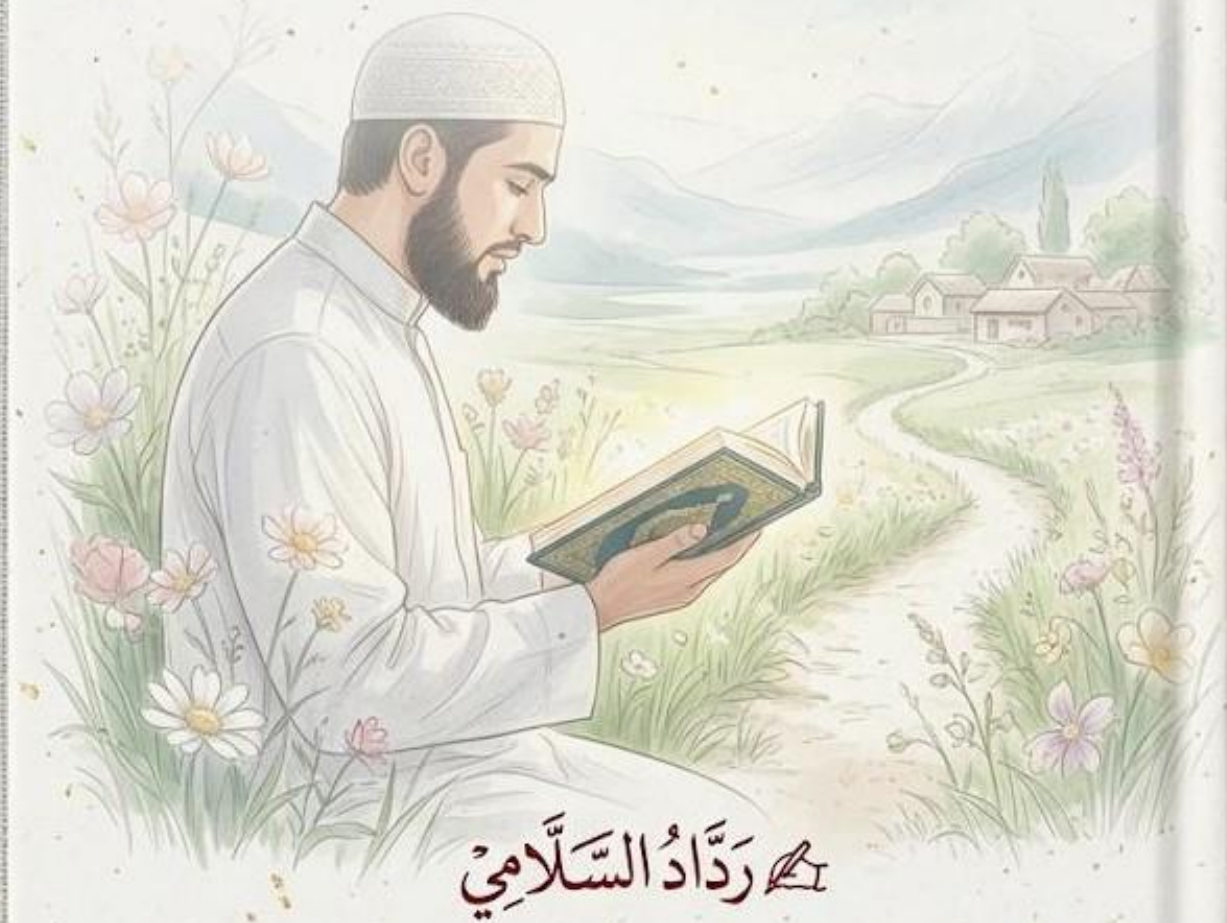

رَدَّادُ السَّلَّامِيُ

سُورَةُ الحُجُرَات

دستور الوجدان وبناء المجتمع المؤدَّب بالوحي

رداد الســـلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

ليست سورة الحجرات سورة آداب اجتماعية فحسب، بل سورة بناء الإنسان المؤدَّب بالوحي، والمجتمع المحروس بالتقوى.

تبدأ الحجرات من **الأدب مع الله ورسوله؛** لأن الإنسان إذا اختلّ ميزانه مع الوحي اختلّ ميزانه مع الناس.

ثم تنتقل إلى **أدب التلقي والمعرفة؛** لأن المجتمع لا يفسده الشر وحده، بل تفسده الأخبار غير الممحّصة، والأحكام المتسرعة، والجهالة حين تلبس ثوب الحميّة.

ثم تهبط إلى **تطهير العلاقات اليومية؛** حيث السخرية واللمز والتنابز والظن والتجسس والغيبة ليست أخطاء عابرة، بل أدوات خفية لهدم الأخوة من الداخل.

ثم تبلغ الذروة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى...**﴾ وهنا تتجاوز السورة حدود الجماعة المؤمنة إلى أفق الإنسان كله، لتقول: إن الأصل واحد، والكرامة مشتركة، والتفاضل ليس بالدم ولا اللون ولا القبيلة ولا الجاه، بل بالتقوى.

سورة الحجرات ليست دستور المجتمع فقط، بل دستور النفس التي تصلح للمجتمع.

فهي لا تبدأ بإصلاح العلاقات بين الناس مباشرة، بل تبدأ بإصلاح موقع الإنسان أمام الوحي:

لا يتقدم.

لا يرفع صوته.

لا يتعجل الحكم.

لا يصدق كل خبر.

لا يترك الفتنة تتمدد.

لا يجرح كرامة أخيه.

لا يحوّل الظن إلى معرفة.

لا يفتش في المستور.

لا يأكل عرض الغائب.

لا يجعل النسب بديلاً عن التقوى.

ولا يخلط بين الإسلام الظاهر والإيمان المستقر في القلب.

وهذه هي عبقرية السورة:

أنها تكشف أن فساد المجتمع يبدأ غالبًا من **خلل صغير في الداخل**: كلمة، نبرة، ظن، خبر، سخرية، شعور بالتفوق، دعوى إيمان لم تتهذب بعد.

المقدمة

السورة التي تبدأ من الصوت وتنتهي بالتقوى

ليست سورة الحجرات سورةً في الآداب الجزئية فحسب، ولا مجموعةً من التوجيهات الاجتماعية المتفرقة، ولا سياجًا تشريعيًا يحرس ظاهر الجماعة من الانفلات؛ إنها أعمق من ذلك وأرفع. إنها سورةٌ تؤسس الإنسان من موضعه الأول: **موقفه من الوحي**، ثم تنقله إلى موقفه من الخبر، ثم إلى موقفه من الخصومة، ثم إلى موقفه من أخيه الإنسان، ثم إلى موقفه من ذاته حين يدّعي الإيمان قبل أن يستقر الإيمان في قلبه.

إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها واسعة في أثرها. كأنها تختصر مشروع التربية الإسلامية كله في مسار مكثف:
أن يتأدب الإنسان مع الله ورسوله، ثم يتأدب مع الحقيقة، ثم يتأدب مع المجتمع، ثم يتأدب مع كرامة الناس، ثم يتأدب مع اختلاف الشعوب والقبائل، ثم يتأدب مع حقيقة نفسه، فلا يدعي مقامًا لم يبلغه، ولا يلبس ظاهر الانقياد ثوب الإيمان الكامل.

ومن هنا كان اختيار العنوان الأقرب إلى روحها:
سورة الحجرات: دستور الوجدان وبناء المجتمع المؤدب بالوحي.

فالدستور هنا ليس دستور السلطة، بل دستور الضمير.
وليس دستور الإجراءات، بل دستور المعاني.

وليس دستور الدولة وحدها، بل دستور الإنسان قبل أن يدخل الدولة، والمجتمع قبل أن يصنع السياسة، والقلب قبل أن يرفع راية الدعوى.

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾

وهذه البداية ليست عارضة.
إنها تضع الحجر الأول في بناء السورة كلها.

فالإنسان لا يستقيم اجتماعه قبل أن يستقيم مصدر تلقيه. ولا يتهذب لسانه قبل أن يتهذب موقفه من الوحي. ولا يحسن الظن والقول والحكم والإصلاح حتى يعرف أولًا أن لله ورسوله التقديم، وأن للعبد الوقوف، وأن للعقل شرفه حين يعمل في نور الوحي لا حين يتقدم عليه.

ثم تأتي الآية التالية لتنتقل من التقديم المعنوي إلى رفع الصوت الحسي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...**﴾

وكأن السورة تقول:
من لم يتأدب في مقام التلقي، لن يتأدب في مقام الخطاب.
ومن رفع رأيه فوق الوحي، سهل عليه أن يرفع صوته فوق النبي.
ومن داخله ضجيج الاستعلاء، عجز عن نعمة الإنصات.

ثم تمضي السورة إلى حفظ المجتمع من أول أبواب انهياره: **الخبر الكاذب، والحكم المتعجل، والجهالة التي تظن نفسها معرفة.**

﴿**إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...**﴾

هنا لا تتحدث السورة عن معلومة عابرة، بل عن مصير جماعة. فالخبر إذا دخل المجتمع بلا تثبت، صار سهمًا في جسد الأخوة، وربما صار نارًا في أرض آمنة. لذلك لم تجعل السورة التثبت ترفًا معرفيًا، بل جعلته عبادة عقلية، وفريضة اجتماعية، وصمام أمان ضد الندم.

ثم إذا وقعت الخصومة، لا تدع السورة المؤمنين في حياد بارد.
إنها تأمر بالإصلاح.
والإصلاح هنا ليس مجاملة بين طرفين، بل ردع للبغي، وعودة إلى العدل، وحماية للجماعة من أن تتحول الخصومة إلى هوية، والخلاف إلى قطيعة، والقوة إلى حق مزعوم.

ثم تبلغ السورة موضعًا بالغ الرقة والجلال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

هذه ليست جملة وعظية.
إنها أصل عمراني.
فالأخوة ليست عاطفة رخوة، بل تكليف. وليست شعارًا يقال عند الصفاء، بل عهد يظهر عند النزاع. ولذلك جاء بعدها مباشرة: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾

فالأخوة التي لا تصلح إذا فسد ذات البين، أخوة ناقصة المعنى. والإيمان الذي لا ينهض لترميم العلاقة بين المؤمنين، إيمان ترك المجتمع نهبًا للهوى والغضب.

بعد ذلك تدخل السورة إلى المساحات الدقيقة من النفس الإنسانية:
السخرية.

اللمز.

التنابز.

الظن.

التجسس.

الغيبة.

وهذه ليست مجرد أخطاء لسانية، بل أمراض وجودية. لأن الإنسان حين يسخر، لا يطلق نكتة فقط، بل يهدم قدرًا من كرامة أخيه. وحين يلمز، لا يعبث بكلمة فقط، بل يطعن إنسانًا في موضع خفي. وحين يتجسس، لا يبحث عن خبر فقط، بل يقتحم حرمًا جعله الله مستورًا. وحين يغتاب، لا يتحدث عن غائب فقط، بل يأكل من معنى أخيه وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

ثم تأتي الآية الكبرى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾**

هنا تخرج السورة من دائرة الجماعة المؤمنة إلى أفق الإنسانية كلها.
وكأنها تقول: إن المجتمع المسلم لا يكتمل أدبه حتى يعرف كيف ينظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان.
فالاختلاف ليس ذريعة احتقار، بل باب تعارف.
والقبيلة ليست منصة تعالٍ، بل علامة تعريف.
والنسب ليس معيار تفاضل، بل وسيلة انتساب.
أما الكرامة العليا فليست في الدم، ولا اللون، ولا القوة، ولا المال، ولا الشهرة، بل في التقوى.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

وبهذه الجملة تسقط مقاييس كثيرة من عروشها الزائفة.

يسقط غرور النسب.

ويسقط وهم اللون.

وتسقط طغمة المال.

وتسقط عصبية الجماعة.

وتبقى التقوى وحدها مقياسًا لا يراه الناس كاملًا، لكن الله يعلمه كاملًا.

ثم تختم السورة بتمييز دقيق بين الإسلام والإيمان: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا...**﴾

وهنا تعود السورة إلى الداخل بعد أن طافت بالمجتمع كله.

كأنها بدأت من الداخل وختمت بالداخل.

بدأت بأدب القلب أمام الوحي، وختمت بحقيقة الإيمان في القلب.

وبين البدء والختم، رسمت طريق المجتمع النقي: وحيٌ لا يُتقدَّم عليه، ونبيٌّ لا يُرفع الصوت فوق صوته، وخبرٌ لا يُقبل بلا تبين، وخصومةٌ لا تُترك بلا إصلاح، وكرامةٌ لا تُهدر بسخرية أو لمز، وسترٌ لا يُهتك بظن وتجسس، وإنسانيةٌ لا تُختزل في قبيلة أو نسب، وإيمانٌ لا يُدعى باللسان قبل أن يدخل القلب.

هذه هي سورة الحجرات.

سورة الأدب الأعلى.

سورة المجتمع إذا أراد أن يكون نظيفًا من الداخل.

سورة اللسان حين يتطهر، والعقل حين يتثبت، والقلب حين يتواضع، والإنسان حين يرى في أخيه امتدادًا لكرامته لا موضوعًا لاحتقاره.

الفصل الأول

لا تقدّموا: حين يتربى العقل على الوقوف خلف الوحي

تفتتح سورة الحجرات نداءها الأول للمؤمنين بنداء يضعهم مباشرة أمام أخطر امتحان في حياة الإنسان المؤمن:

أين يقف رأيك من أمر الله؟

وأين تقف رغبتك من حكم رسوله؟

وأين تقف حماستك من هدي الوحي؟

وأين يقف صوتك الداخلي، بكل اندفاعه واستعجاله وثقته بنفسه، من مقام التسليم لله؟

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**

هذا النهي ليس نهيًا عن حركة حسية فحسب، بل عن موقف نفسي ومعرفي وروحي.

إنه نهي عن أن يجعل الإنسان ذاته أمام الوحي، وأن يجعل رأيه سابقًا على النص، وأن يجعل هواه مفسرًا للدين، وأن يدخل إلى أمر الله ورسوله بروح المتحكم لا بروح العبد المتلقي.

﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾

كلمة قصيرة، لكنها تقطع طريقًا طويلًا من آفات النفس.

لا تقدموا أهواءكم.

لا تقدموا أعرافكم.

لا تقدموا عصبياتكم.

لا تقدموا أذواقكم.

لا تقدموا مصالحكم.

لا تقدموا غضبكم.

لا تقدموا تأويلاتكم الفاسدة.

لا تجعلوا شيئًا يمشي أمام الوحي ثم تطلبون من الوحي أن يلحق به.

فالقرآن لا يريد من المؤمن عقلًا ملغى، بل يريد عقلًا مؤدبًا.

ولا يريد منه قلبًا ميتًا، بل قلبًا سامعًا.

ولا يريد منه شخصية مسحوقة، بل شخصية عارفة بحدودها أمام الله.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى معنى عظيم:

السورة التي ستتكلم بعد ذلك عن الأخبار، والخصومات، والسخرية، واللمز، والظن، والتجسس، والغيبة، والتعارف، والتقوى، تبدأ أولًا بإصلاح علاقة الإنسان بالوحي.

وهذا ليس ترتيبًا شكليًا.

إنه ترتيب منهجي.

لأن من اختلّ أدبه مع الوحي، اختلّ أدبه مع الناس.

ومن قدّم هواه على الله ورسوله، سيقدّم ظنه على أخيه.

ومن لم يتثبت أمام النص، لن يتثبت أمام الخبر.

ومن رفع ذاته فوق الهداية، سيرفع قبيلته فوق الإنسان، ولسانه فوق كرامة الآخرين، وغضبه فوق العدل.

إن المشكلة الاجتماعية في أصلها ليست اجتماعية فقط.
كثير من خراب الناس يبدأ من خراب المرجعية.
حين لا يعود الإنسان يسأل: ماذا يريد الله مني؟
بل يسأل: كيف أجعل ما أريد مقبولًا؟
وحين لا يعود الوحي حاكمًا، بل شاهدًا يُستدعى عند الحاجة، ويُغيَّب عند المشقة، وينتقى منه ما يوافق المزاج، ويُدفع منه ما يصادم الهوى.

لهذا جاءت الآية الأولى كأنها بوابة السورة كلها.
من دخل منها، فهم ما بعدها.
ومن تجاوزها، قرأ الآداب قراءة سطحية، كأنها تعليمات اجتماعية لا جذور لها.

معنى التقديم بين يدي الله ورسوله

التقديم بين يدي الله ورسوله أن يمشي الإنسان برأيه قبل أن يسمع، وأن يحكم قبل أن يتبين، وأن يقرر قبل أن يستفتي الوحي، وأن يتصرف في الدين بمنطق المالك لا بمنطق العبد.

وقد يكون التقديم صريحًا فجًا، كأن يرد الإنسان حكم الله لأنه لا يلائم هواه.
وقد يكون خفيًا ناعمًا، كأن يقبل النص في الظاهر، ثم يفرغه من سلطانه بالتأويل المتكلف.
وقد يكون اجتماعيًا، حين تُجعل العادات أقوى من الشريعة.

وقد يكون سياسيًا، حين تُجعل المصلحة المتوهمة فوق العدل.
وقد يكون فكريًا، حين يُدخل الإنسان إلى القرآن أسئلته المريضة لا ليهتدي، بل ليحاكم الوحي إلى مزاج العصر.
وقد يكون نفسيًا، حين يعرف الإنسان الحق، لكنه يؤجل الطاعة حتى يرضى هواه.

والقرآن يعالج هذا كله من الجذر: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا**﴾

أي: قفوا حيث ينبغي للعبد أن يقف.
تعلموا رتبة العبودية.
اجعلوا الوحي أمامكم لا خلفكم.
اجعلوه قائدًا لا تابعًا.
اجعلوه نورًا لا مادة خامًا لتبرير الرغبات.

وليس في هذا إلغاء للعقل، بل إنقاذ له من طغيانه.
فالعقل حين يتقدم على الوحي في مقام التسليم يتحول من أداة فهم إلى أداة خصومة.
أما حين يقف في موضعه الصحيح، فإنه يتلقى، ويتدبر، ويفقه، ويستنبط، ويوازن، ويطبق، ويجتهد داخل نور الهداية لا خارجها.

إن الوحي لا يهين العقل.
بل يمنعه من أن يصير إلهًا صغيرًا داخل الإنسان.

التقوى حارسة الأدب

بعد النهي مباشرة قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾

وهذه الجملة تكشف أن المسألة ليست مسألة نظام معرفي فقط، بل مسألة تقوى.

قد يعرف الإنسان النص، لكنه لا يتقي.

وقد يحفظ الدليل، لكنه يتلاعب.

وقد يتكلم باسم العلم، لكنه يجعل العلم سلّمًا لهواه.

لذلك جاءت التقوى هنا حارسةً للأدب مع الوحي.

فالتقوى هي التي تجعل الإنسان يخاف أن يتقدم حيث ينبغي أن يتأخر، وأن يتكلم حيث ينبغي أن ينصت، وأن يحكم حيث ينبغي أن ينتظر، وأن يرفع رأيه حيث ينبغي أن يخفضه.

إنها ليست خوفًا سلبيًا يشلّ العقل، بل يقظة روحية تمنع العقل من الخيانة.

لأن العقل بلا تقوى قد يصير آلة تبرير دقيقة.

واللسان بلا تقوى قد يصير منبرًا للغرور.

والعلم بلا تقوى قد يصير بابًا للاستعلاء.

والحماسة بلا تقوى قد تصير عدوانًا باسم الحق.

لهذا جمعت الآية بين النهي والتقوى:

لا تقدموا، واتقوا.

كأنها تقول: لن تستطيعوا حفظ حدودكم مع الوحي بمجرد المعرفة، حتى يقوم في داخلكم رقيب التقوى.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾

وهذا الختام بالغ الدقة.
فالتقديم بين يدي الله ورسوله قد يظهر في الكلام، والله **سميع**.
وقد يختبئ في النية والقصد والميل الداخلي، والله **عليم**.

يسمع نبرة المتقدم.
ويعلم نية المتحايل.
يسمع من يقول بلسانه: سمعنا وأطعنا.
ويعلم من يخفي في قلبه: حتى أرى ما يناسبني.

فالآية لا تترك الإنسان عند ظاهر الأدب.
إنها تدخله إلى مراقبة الله في اللفظ والضمير.
لأن من الناس من يخفض صوته ظاهرًا، لكنه يرفع هواه باطنًا.
ومنهم من يستشهد بالنص، لكنه لا يستسلم له.
ومنهم من يتكلم بأدب اللسان، لكن قلبه مزدحم بالاعتراض.

والله سميع عليم.
يسمع القول.
ويعلم ما وراء القول.

من أدب التلقي إلى أدب الحياة

حين يتربى الإنسان على ألا يتقدم بين يدي الله ورسوله، يتغير نظامه الداخلي كله.

يتعلم الأناة قبل الحكم.
والتواضع قبل الفهم.
والاستماع قبل الاعتراض.
والتثبت قبل الموقف.
والعبودية قبل الاجتهاد.
والإنصاف قبل الغلبة.

وهذا هو السر في أن سورة الحجرات تبدأ من هنا.

لأن المجتمع الذي يتقدم أفراده على الوحي، لا يمكن أن تسلم فيه الأخوة.
سيصير كل إنسان مركزًا صغيرًا للقياس.
هذا يجعل مزاجه دينًا.
وذاك يجعل قبيلته معيارًا.
وثالث يجعل غضبه عدلًا.
ورابع يجعل ظنه حقيقة.
وخامس يجعل لسانه سيفًا في أعراض الناس.

أما إذا رجع الجميع إلى الوحي، صار فوق الجميع ميزان واحد.
لا يملكه قوي دون ضعيف.
ولا قبيلة دون قبيلة.
ولا غني دون فقير.
ولا عالم دون عامي.
إنه ميزان الله.

ومن هنا يبدأ العمران الأخلاقي الحقيقي:
لا من كثرة القوانين وحدها، بل من خضوع القلب للحق.
ولا من ضبط السلوك ظاهرًا فقط، بل من ترتيب الداخل ترتيبًا يجعل الوحي في موضع القيادة، والهوى في موضع الاتهام.

حين يصير الوحي مركز الوعي

إن أعظم ما تصنعه هذه الآية أنها تنزع الإنسان من مركزية ذاته، وتعيده إلى مركزية الوحي.

والإنسان بطبعه يميل إلى أن يكون هو المعيار.
يريد أن يحب ما يوافقه، ويكره ما يضيقه، ويقبل من الدين ما يرفعه، ويتأفف مما يكسر شهوته أو كبرياءه.
لكن الإيمان لا يكتمل حتى ينتقل الإنسان من سؤال:
ماذا أريد؟
إلى سؤال:
ماذا يريد الله مني؟

وهذا الانتقال هو جوهر العبودية.
ليس أن تُلغى إرادة الإنسان، بل أن تتطهر.
وليس أن يُمحى عقله، بل أن يستنير.
وليس أن تُهدر شخصيته، بل أن تنجو من طغيان ذاتها.

فالعبد حين يقف خلف الوحي لا يصغر، بل يكبر.
لأنه يتحرر من ضيق الهوى إلى سعة الهداية.

ويخرج من فوضى الرأي المنفلت إلى طمأنينة الميزان الرباني.
ويعرف أن الحق ليس ما صفق له الناس، ولا ما ورثته الجماعة، ولا ما زينه الغضب، ولا ما سوغته المصلحة العاجلة، بل ما قام عليه أمر الله ورسوله.

خلاصة الفصل

تبدأ سورة الحجرات بهذا النداء لتقول للمؤمنين:
قبل أن تطهروا المجتمع من السخرية، طهروا موقع الوحي في نفوسكم.
وقبل أن تصلحوا بين المتخاصمين، أصلحوا علاقتكم بالمرجعية العليا.
وقبل أن تتبينوا الأخبار، تعلموا ألا تتقدموا على الله ورسوله.
وقبل أن تدّعوا الإيمان، قفوا في مقام العبودية.

فالأدب الأول ليس مع الناس، بل مع الله.
ومن صح أدبه مع الله، رُجي أن يصح أدبه مع خلق الله.

وهذه هي بداية سورة الحجرات:
ليست بداية قانون، بل بداية تربية.
وليست بداية مجتمع فقط، بل بداية قلب.
وليست بداية أخلاق خارجية، بل بداية إنسان يعرف متى يتكلم، ومتى يسكت، ومتى يحكم، ومتى ينتظر، ومتى يمضي، ومتى يقف خلف الوحي مطمئنًا؛ لأن العبد لا يضيع حين يجعل الله ورسوله أمامه، ولا يهتدي حين يجعل نفسه أمام الله ورسوله.

الفصل الثاني

لا ترفعوا أصواتكم: أدب الحضور بين يدي النبوة

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾

بعد أن وضعت السورة حدًّا للتقدّم بين يدي الله ورسوله، انتقلت إلى الصوت.

وهذا الانتقال بديع.

فالإنسان قد لا يتقدم بجسده، لكنه يتقدم بصوته.

وقد لا يعلن اعتراضه، لكنه يملأ المقام بضجيجه.

وقد يقف في حضرة الحق، لكن داخله لا يزال مزدحمًا بذاته.

الصوت هنا ليس مجرد موجة تخرج من الحنجرة.

إنه علامة على موقع النفس.

فمن عرف المقام، عرف مقدار صوته.

ومن امتلأ قلبه بالتوقير، انخفض لسانه من غير تكلف.

ومن أدرك أنه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يتصرف كما يتصرف في مجالس الناس العادية؛ لأن المقامات ليست سواء، ومن سوّى بين المقامات ظلم المعاني.

ولهذا قال تعالى: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾

إن ظاهر الآية نهيٌ عن رفع الصوت الحسي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم. وهو أدب ظاهر مباشر. لكنه ليس ظاهرًا سطحيًا؛ لأن القرآن حين يربي الظاهر لا يفصله عن الباطن. إنه يضبط الحركة لأنه يريد تهذيب القلب الذي صدرت عنه الحركة.

فرفع الصوت فوق صوت النبي ليس خللًا في النبرة وحدها، بل خلل في الشعور بالمقام.
إنه اضطراب في ميزان الحضور.
كأن الذات لم تفهم أنها في حضرة النبوة، وأن النبوة ليست شخصية عادية بين الشخصيات، ولا زعامة اجتماعية بين الزعامات، بل مقام اصطفاه الله ليكون موضع البلاغ والهداية والبيان.

ليست القضية إذن أدب مجلس فقط.
إنها أدب أمة مع مصدر هدايتها.

حين يكون الصوت امتحانًا للقلب

من عجيب هذه الآية أنها جعلت للصوت صلةً بمصير العمل: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾

وهذا موضع جليل ينبغي الوقوف عنده طويلًا.

قد يحبط العمل لا بسبب ترك ظاهر للدين، ولا بسبب إنكار معلن، بل بسبب سوء أدب مع مقام النبوة.

وقد يقع الخطر والإنسان لا يشعر؛ لأنه لا يرى في رفع الصوت إلا حركة عابرة، ولا يرى في الجفاء إلا طبعًا، ولا يرى في قلة التوقير إلا تلقائية، بينما القرآن يرى ما وراء ذلك: يرى القلب الذي لم يتأدب بما يكفي.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

هذه العبارة تهزّ الغفلة.

فليس كل خطر يشعر به صاحبه.

وليس كل سقوط يقع بصوت مرتفع.

قد تنقص هيبة الوحي في القلب قليلًا قليلًا، ويظن الإنسان أن الأمر مجرد أسلوب.

وقد يتساهل في مقام النبي صلى الله عليه وسلم باسم الاعتياد، أو باسم الألفة، أو باسم الحرية اللسانية، ثم لا يدري أن قلبه خسر من نور التوقير بقدر ما ربح لسانه من جرأة.

إن القرآن لا يريد علاقة جافة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ولا يريد علاقة غلوّ تخرجه عن مقام العبودية.

يريد علاقة محكمة: محبة بلا إفراط، توقير بلا تأليه، اتباع بلا جفاء، قرب بلا ابتذال.

ومن هنا كانت هذه الآية من أعظم آيات التربية على **حسّ المقام**.

فالأدب ليس تصنعًا اجتماعيًا.

الأدب معرفة المقام، ثم إعطاء كل مقام حقه.

ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾

في هذه الجملة تفريق دقيق بين خطاب الناس بعضهم لبعض، وخطابهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر، لكنه ليس كآحاد البشر في مقام التلقي والبلاغ.
هو عبد الله ورسوله.
بشريته تمنع الغلو فيه، ورسالته تمنع الجفاء معه.
ومن لم يجمع بين هذين الأصلين اختلّ فهمه: فإما أن يرفعه فوق مقام العبودية، وإما أن ينزله عن مقام الرسالة.

والآية هنا تعالج الجفاء لا الغلو.
تعالج أن يتعامل المؤمن مع النبي كما يتعامل مع غيره في رفع الصوت، ومطلق الجهر، وخشونة الخطاب.
كأن القرآن يريد أن يقول: إن المساواة في أصل البشرية لا تعني المساواة في مقام الخطاب.
فالناس يتفاضلون بالمقامات التي جعلها الله لهم، وأعلى المقامات البشرية مقام النبوة.

ومن لم يميز مقام النبوة ضاع عليه كثير من معنى الدين؛ لأن الدين جاءنا من هذا الباب: باب الوحي المنزل على النبي المرسل.

فإذا تراجع التوقير هنا، تراجع أثر الاتباع هناك.
وإذا ضعفت الهيبة في حضرة المبلّغ، ضعف الانقياد لما بلّغ.

الأدب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

قد يقال: هذه الآية نزلت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون أثرها بعد وفاته؟

والجواب: إن المعنى الظاهر المتعلق بحياته باقٍ في أصله من جهة الأدب مع مقامه، وإن تغيرت صورة الحضور. فليس بيننا اليوم مجلس نجلس فيه أمام صوته الشريف مباشرة، لكن بيننا سنته، وحديثه، وسيرته، وهديه، وأمره ونهيه.

فمن الأدب معه بعد وفاته ألا يُرفع صوت الرأي فوق سنته.
وألا يُعامل حديثه ككلام عابر بين الكلام.
وألا يُقدّم عليه ذوق الناس، ولا ضغط العصر، ولا شهوة التأويل، ولا حيلة المتكلمين بألسنة ناعمة وقلوب متقدمة.

ليس المقصود أن يُمنع الفهم والاجتهاد والنظر؛ فالسنة تُفهم بفقه، وتُجمع نصوصها بعلم، وتُنزَّل أحكامها بحكمة. لكن فرقًا بين الفهم المتأدب، والاعتراض المتخفي في لباس الفهم.
فرقٌ بين عقل يخدم النص، وعقل يريد أن يجعل النص خادمًا لمزاجه.

ولذلك فإن الآية تُسمع في كل زمن بصورة جديدة:

لا ترفعوا أصوات أهوائكم فوق صوت النبي.
لا ترفعوا ضجيج العصر فوق هديه.
لا تجعلوا مألوفات الناس حاكمة على سنته.
لا تتعاملوا مع كلامه كأنه مادة تفاوض مفتوحة لكل هوى.

إن توقير النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ليس شعارًا يكتب، ولا مديحًا يقال، بل خضوعٌ لسنته، وحفظٌ لمقامه، واستحياءٌ من أن يُذكر قوله ثم يتقدم عليه قول من لا يبلغ غبار قدميه.

غضّ الصوت: من حركة اللسان إلى امتحان القلب

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ**﴾

لم يقل: أولئك الذين حسنت أصواتهم.
ولا قال: أولئك الذين أتقنوا آداب المجلس.
بل قال: ﴿**امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ**﴾

وهذه نقلة قرآنية مدهشة: من الصوت إلى القلب، ومن الظاهر إلى الامتحان، ومن الأدب السلوكي إلى حقيقة التقوى.

فغضّ الصوت ليس حركة منفصلة.
إنه ثمرة امتحان داخلي.
إن القلب حين يُمتحن للتقوى يصير أكثر حساسية تجاه المقامات. لا يحتاج إلى أوامر كثيرة حتى يتأدب؛ لأن التقوى فيه تصنع رقابة لطيفة على اللسان والحركة والنظر.

والتعبير بقوله: ﴿**امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾

يوحي بالتصفية والاختبار والتهيئة.
كأن القلب لا يصلح لحمل التقوى حتى يمرّ على نار التهذيب.
فليس كل قلب يدّعي التقوى صار أهلًا لها.
ولا كل لسان يخفض صوته صار قلبه خاشعًا.
لكن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله غضًّا صادرًا من معرفة وتعظيم ومحبة، هؤلاء قد ظهر أثر الامتحان فيهم.

إنهم لم يخفضوا أصواتهم لأن المجلس فرض ذلك فقط، بل لأن القلب عرف من يخاطب.
وإذا عرف القلب، استقام اللسان.

لهم مغفرة وأجر عظيم

قال تعالى: ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾

ما أعظم هذا الجزاء على أدب يبدو في ظاهره صغيرًا.
غضّ صوت، فيقابله مغفرة وأجر عظيم.

وهنا تتجلى طبيعة الميزان الرباني.
إن الله لا ينظر إلى حجم الفعل في عيون الناس فقط، بل إلى ما يحمله من معنى في القلب.
قد تكون الحركة صغيرة، لكنها تدل على عبودية كبيرة.
وقد تكون الكلمة قليلة، لكنها تكشف عن مقام رفيع من التقوى.

وقد يكون خفض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة على قلب خضع لله قبل أن يخفض صوته لعبده ورسوله.

ولهذا كان الجزاء واسعًا:
مغفرة لما يقع من نقص.
و**أجر عظيم** لما قام في القلب من توقير.

إن الأدب مع النبوة ليس زينة على هامش الدين.
إنه من صميم الدين.
فالرسول صلى الله عليه وسلم هو باب البلاغ، ومقامه في الأمة مقام الهداية الموصولة بالوحي. ومن لم يتأدب عند الباب، كيف يدخل إلى المعنى؟

الذين ينادونك من وراء الحجرات

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾

هنا تظهر صورة أخرى من صور الجفاء: النداء من وراء الحجرات.

والحجرات بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذكرها معنى بالغ اللطف.
فالقرآن لا يقول فقط: لا تنادوه نداءً جافيًا.
بل يرسم المشهد: أناس يقفون خارج الحجرات، ينادون النبي صلى الله عليه وسلم من وراء مساكنه، كأنهم لا يميزون بين مقام عام ومقام خاص، ولا بين حاجة الإنسان إلى الخلوة وحق الناس في الخطاب، ولا بين الطلب المؤدب والاقتحام الجاف.

إنها ليست مشكلة صوت فقط.

إنها مشكلة عقل.

لذلك قال: ﴿**أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾

وهذا التعبير شديد الدلالة.

لم يقل: لا يؤمنون.

ولا قال: لا يحبون.

بل قال: **لا يعقلون**.

لأن الأدب يحتاج إلى عقل.

والجفاء ليس دائمًا نابعًا من شر صريح؛ قد يكون نابعًا من غلظة في الفهم، وفقر في تمييز المقامات، وعجز عن إدراك أثر التصرف في نفوس الآخرين.

فالعقل في القرآن ليس آلة جدل باردة.

العقل وعي بالحق، وبالمقام، وبالعاقبة، وبحدود النفس.

ومن لا يعرف متى يتكلم، وكيف يطلب، وأين يقف، ومع من يخاطب، فقد نقص من عقله بقدر ما نقص من أدبه.

الصبر حتى يخرج إليهم

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾

في هذه الآية تهذيب عظيم لشهوة الاستعجال.

فالإنسان المستعجل يريد حاجته الآن.

ينادي الآن.

يطالب الآن.

يفتح الأبواب بصوته إن لم تُفتح له باليد.

ينسى أن للناس أوقاتهم، وخصوصياتهم، وطاقتهم، وحقهم في السكينة.

لكن القرآن يربّي النفس على أن الانتظار أحيانًا عبادة.

وأن الصبر عند أبواب المقامات أدب.

وأن الحاجة لا تمنح صاحبها حق الجفاء.

وأن صدق الطلب لا يبرر سوء الطريق إليه.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

أي أن الخير لم يكن في قضاء الحاجة وحدها، بل في الأدب الذي كان ينبغي أن يسبقها.

فالإنسان قد ينال حاجته ويفقد من نفسه شيئًا.

وقد يتأخر مطلبه، لكنه يربح أدبًا يبقى أثره في قلبه.

والله غفور رحيم

وخُتمت الآية بقوله: **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**

وهذا الختام يفتح باب الرجاء بعد شدة التأديب.

فالقرآن يعلّم ولا يسحق.

يؤدب ولا يطرد.

يكشف الخلل، لكنه لا يغلق باب العودة.
يقول لهم: كان الأولى أن تصبروا، وكان الخير في الانتظار، وأكثر من فعل هذا لا يعقلون؛ ثم يفتح لهم أفق المغفرة والرحمة.

وهذه من جمالية التربية القرآنية:
أنها تجمع بين جلال التصحيح وجمال الاستبقاء.
لا تترك الخطأ باسم الرحمة، ولا تنزع الرحمة باسم الخطأ.

ما الذي تعلّمنا إياه هذه الآيات؟

تعلمنا أن الأدب ليس قشرة خارجية.
إنه علم القلب بالمقام.

وتعلمنا أن رفع الصوت قد يكون علامة على رفع النفس.
وأن خفض الصوت قد يكون أثرًا لامتحان القلب للتقوى.

وتعلمنا أن النبوة لا تُعامل كما تُعامل الشخصيات العادية.
فالنبي صلى الله عليه وسلم عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُجفى، وبشرٌ لا يُغلَى فيه، ومصطفى لا يُسوَّى بغيره في مقام البلاغ والهداية.

وتعلمنا أن سوء الأدب قد يجرح العمل من حيث لا يشعر صاحبه.
وأن بعض الخسارات الروحية لا تأتي من باب المعصية الظاهرة وحدها، بل من باب التهاون في التعظيم.

وتعلمنا أن العقل ليس كثرة الكلام، بل حسن التقدير.
وأن من لا يعرف المقامات لا يملك تمام العقل، ولو ملك حدة اللسان.

من صوت المجلس إلى ضجيج العصر

إذا تجاوزنا المعنى المباشر إلى التأمل المنضبط، وجدنا أن هذه الآيات لا تربي جيل الصحابة وحده على خفض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تربي الأمة كلها على خفض ضجيجها أمام النبوة.

لكل عصر ضجيجه.

ضجيج الشهوة.

ضجيج السياسة.

ضجيج الشهرة.

ضجيج التأويل المنفلت.

ضجيج السوق.

ضجيج الجماهير.

ضجيج المثقف حين يظن أن حداثة عبارته تمنحه حق الاستعلاء على السنّة.

وضجيج المتدين حين يظن أن حماسته تكفيه عن الأدب.

وسورة الحجرات تقول لهذا كله:

اخفض صوتك.

ليس لأن الإسلام يخاف من السؤال، بل لأن السؤال له أدب.

وليس لأن السنة تعجز عن البرهان، بل لأن البرهان لا يؤخذ بروح المتطاول.

وليس لأن العقل عدو الوحي، بل لأن العقل إذا دخل بلا خشوع صار خصمًا لا طالب هداية.

إن خفض الصوت أمام النبي صلى الله عليه وسلم اليوم يعني أن نقرأ سنته بعلم وتوقير، وأن نذكر اسمه بالصلاة والسلام، وأن نتحرج من ردّ هديه بلا بينة، وأن نميز بين الاجتهاد المنضبط وبين العبث، وبين السؤال الباحث وبين السؤال المتكبر، وبين النقد العلمي وبين قلة الأدب المقنّعة بثوب الجرأة.

أدب النبوة وأدب المجتمع

وإذا تأملت موضع هذه الآيات من السورة، وجدت أنها تمهّد لما بعدها.

فمن لم يتأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم لن يحسن التثبت من خبر الفاسق.
ومن لم يغض صوته عند رسول الله لن يغض لسانه عن السخرية واللمز.
ومن لم يعرف حرمة مقام النبوة لن يعرف حرمة عرض المؤمن.
ومن لا يميز بين خطاب النبي وخطاب سائر الناس، قد لا يميز بين التعارف والعصبية، ولا بين التقوى والانتساب، ولا بين الإيمان المدعى والإيمان الصادق.

إن السورة تبني الذوق الأخلاقي من أعلى نقطة.
تبدأ بمقام الله ورسوله، ثم تنزل إلى مقام المؤمنين، ثم تفتح أفق الإنسانية كلها.

وهذا من ترتيب القرآن العجيب:
لا يبدأ بإصلاح الشارع قبل إصلاح القبلة الداخلية للإنسان.
ولا يبدأ بتجميل العلاقات قبل ضبط مصدر النور.
فإذا استقام الأدب مع الوحي، صار في القلب استعداد لأن يستقيم مع الخلق.

خلاصة الفصل

في هذه الآيات يرسم القرآن ملامح الإنسان المؤدب بالنبوة:

إنسان لا يرفع صوته فوق صوت النبي.
ولا يجعل خطابه له كخطابه لسائر الناس.
ولا يقتحم مقامه بنداء جاف.
ولا يستعجل حاجته على حساب الأدب.
ولا يظن أن صغائر السلوك منفصلة عن مصائر القلوب.

إنه إنسان يعرف أن التوقير عبادة.
وأن الأدب علم خفي.
وأن الصوت قد يكشف ما لم يقله اللسان.
وأن القلب الممتحن للتقوى يظهر أثره في أبسط الحركات.

ولذلك جاءت سورة الحجرات لتقول:
المجتمع النقي يبدأ من صوت منخفض في حضرة النبوة.
ومن قلب يعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس شخصًا عابرًا في تاريخ الأمة، بل هو موضع البلاغ، وباب الهداية، ومقام الرحمة المهداة.

فإذا انخفض الصوت هنا، ارتفع الإنسان هناك.
وإذا تأدب اللسان في حضرة النبي، صار أقدر على صيانة أعراض الناس.
وإذا عرف القلب مقام النبوة، عرف أن الحياة كلها لا تستقيم إلا حين يكون الوحي أعلى من ضجيج النفس والعالم.

الفصل الثالث

فتبينوا: صيانة الوعي من جهالة الخبر

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾

بعد أن أدّبت السورة المؤمنين مع مقام الوحي والنبوة، انتقلت إلى أدب آخر لا يقل خطورة: **أدب التعامل مع الخبر**.

وهذا الانتقال ليس خروجًا من موضوع إلى موضوع.
إنه استمرار في البناء نفسه.

فالذي لا يتقدم بين يدي الله ورسوله، ينبغي ألا يتقدم بين يدي الحقيقة.
والذي يخفض صوته في حضرة النبوة، ينبغي أن يخفض اندفاعه أمام الأخبار.
والذي عرف أن للكلام مقامًا، ينبغي أن يعرف أن للخبر أمانة.

إن المجتمع لا تهدمه السيوف وحدها.
تهدمه الأخبار إذا انفصلت عن التثبت.
وتهدمه الظنون إذا لبست ثوب اليقين.
وتهدمه الروايات حين تنتقل من فم إلى فم حتى تفقد صلتها بالحقيقة، ثم تصبح أساسًا للمواقف والأحكام والعداوات.

لهذا جاءت هذه الآية في قلب سورة الحجرات، كأنها صمام أمان للعقل الجماعي.

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

إنها لا تقول: كذّبوا كل خبر.
ولا تقول: صدقوا كل ناقل.
بل تقول: **فتبينوا**.

وهذه الكلمة تؤسس ميزانًا رفيعًا بين السذاجة والارتياب.
فليس المؤمن ساذجًا يفتح عقله لكل خبر.
وليس مرتابًا يرفض كل شيء.
إنه متثبت.
والتثبت منزلة بين الغفلة والوسواس، بين الانخداع والتكذيب المطلق.

النبأ ليس خبرًا عابرًا

اختارت الآية لفظ **النبأ**، لا مجرد الخبر.

والنبأ في استعمال القرآن غالبًا خبر له شأن وأثر.
ليس كلامًا خفيفًا يمرّ بلا عاقبة.
إنه خبر قد يبنى عليه موقف، أو حكم، أو خصومة، أو نصرة، أو عقوبة، أو قطيعة.

ومن هنا نفهم أن الآية لا تعالج فضول السماع فقط، بل تعالج الأخبار التي تتحول إلى أفعال.

الأخبار التي قد تدفع جماعة إلى ظلم جماعة.
أو تملأ الصدور بالعداوة.
أو تشوه صورة بريء.
أو تجعل المجتمع يعيش على ذاكرة مكذوبة.

وقد قال تعالى: ﴿**أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾

فالخطر ليس في سماع الخبر وحده، بل في أن يتحول الخبر غير المتثبت منه إلى إصابة.
إلى فعل.
إلى ضرر يقع على قوم.
إلى موقف لا يمكن محوه بسهولة.
إلى جرح في الناس، ثم ندم في النفس.

الفاسق والخلل في أمانة النقل

قال تعالى: ﴿**إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ**﴾

والفسق خروج عن الطاعة والاستقامة. وإذا اختلّ دين الناقل، اختلت أمانته أو غلبت عليه دوافع تجعله مظنة الخلل. وليس معنى ذلك أن كل ما يقوله الفاسق كذب، ولكن معناه أن خبره لا يُتلقى تلقيًا مطمئنًا حتى يُعرض على التثبت.

فالآية دقيقة.
لم تأمر بردّ خبره مطلقًا.

ولم تأمر بقبوله مطلقًا.
بل أمرت بالتبين.

وهنا يظهر عدل القرآن.
إنه لا يظلم الناقل برد كل قوله، ولا يظلم المنقول عنه بقبول كل ما يقال فيه.
يجعل بين الطرفين ميزانًا: **التثبت**.

والتثبت هنا ليس إجراءً إداريًا باردًا، بل خلقٌ إيماني.
لأنه يحفظ الناس من ظلمك، ويحفظ قلبك من الندم، ويحفظ المجتمع من الفوضى.

الجهالة ليست غياب المعلومة فقط

قال تعالى: ﴿**بِجَهَالَةٍ**﴾

والجهالة هنا ليست مجرد عدم العلم.
إنها حالة مركبة: نقص علم، مع اندفاع في الفعل.
فالجاهل في هذا الموضع ليس من لا يعرف فقط، بل من لا يعرف ثم يتصرف كأنه يعرف.

وهذه من أخطر صور الجهل:
أن يكون الإنسان ضعيف الدليل، قوي الموقف.
قليل التثبت، كثير الحكم.
لا يملك من الحقيقة إلا طرفًا مكسورًا، لكنه يبني عليه بناءً كاملًا من الولاء والبراء، والحب والبغض، والمدح والقدح.

كم من إنسان أُصيب بجهالة.

لا لأن الناس تعمدوا ظلمه دائمًا، بل لأنهم لم يتبينوا.

سمعوا فاندفعوا.

ظنوا فحكموا.

نقلوا فزادوا.

غضبوا قبل أن يسألوا.

استجابوا لمثير الفتنة قبل أن يستجيبوا لنداء التقوى.

والقرآن هنا لا يربي الفرد فقط، بل يربي الجماعة.

لأن الآية جاءت بصيغة الجمع: ﴿**إِن جَاءَكُمْ... فَتَبَيَّنُوا... أَن تُصِيبُوا... فَتُصْبِحُوا**﴾

إنه خطاب لأمة.

لجماعة مؤمنة ينبغي أن تمتلك نظامًا أخلاقيًا في استقبال الأخبار.

لا تجعل مجالسها أسواقًا للشائعات، ولا تجعل عواطفها مراكب لكل ناقل، ولا تجعل حميتها بديلًا عن البينة.

الندم المتأخر

قال تعالى: ﴿**فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾

الندم هنا يأتي بعد الفعل.

بعد الإصابة.

بعد أن يقع الضرر.

بعد أن تنكشف الحقيقة.
بعد أن يعود الوعي، لكن بعد فوات شيء من العدل.

وهذا من مرارة الندم:
أنه يوقظ الضمير بعد أن يكون الفعل قد خرج من اليد.

قد يعتذر الإنسان، لكن كرامة المظلوم لا تعود كما كانت.
وقد يصحح كلامه، لكن أثر الشائعة لا يموت سريعًا.
وقد يندم المجتمع، لكن الندم لا يمحو كل الكسور التي أحدثها الجهل.

لهذا يريد القرآن أن ينقل الندم من آخر الطريق إلى أوله.
كأنه يقول: تبيّن الآن، حتى لا تندم غدًا.
اسأل الآن، حتى لا تعتذر بعد الفاجعة.
اضبط غضبك الآن، حتى لا تبكي على عدل ضيعته حين صدقت ما لم تثبت.

إن التثبت رحمة مسبقة.
والتسرع ندم مؤجل.

فتبينوا: عبادة العقل

كثيرون يظنون أن العبادة محصورة في الصلاة والصيام والذكر. وهذه أصول عظيمة لا يقوم الدين إلا بها. لكن القرآن يوسع مفهوم العبودية حتى يجعل **التبين** نفسه صورة من صور التقوى.

فحين تتثبت من خبر، فأنت لا تمارس مهارة عقلية فحسب؛ أنت تعبّد عقلك لله.

وحين تمتنع عن بناء موقف على شائعة، فأنت تحمي قلبك من الظلم.

وحين توقف لسانك حتى يظهر الحق، فأنت تقدم قربانًا خفيًا من ضبط النفس.

ليس كل صمت عجزًا.

أحيانًا يكون الصمت تقوى حتى تكتمل البينة.

وليس كل سرعة شجاعة.

أحيانًا تكون السرعة جهالة في ثوب حماسة.

إن الآية تصنع عقلًا مؤمنًا لا ينفصل فيه الإدراك عن الأخلاق.

فالمعرفة في القرآن ليست ترفًا ذهنيًا، بل مسؤولية.

ومن عرف ناقصًا ثم حكم كاملًا، فقد خان المعرفة والعدل معًا.

الخبر في زمن الضجيج

وإذا كان هذا التوجيه عظيمًا في زمن كانت الأخبار تنتقل فيه على ألسنة الأفراد، فكيف بزمن صار فيه الخبر يولد في لحظة، ويطوف الأرض في لحظة، ويُصدّق في لحظة، ويُبنى عليه ظلم في لحظة؟

صار الفاسق لا يأتي وحده.

قد يأتي في صورة حساب مجهول.

أو مقطع مبتور.

أو عنوان مثير.

أو صورة خارج سياقها.

أو تحليل مصنوع.
أو جيش من الأصوات يكرر الكذبة حتى تبدو كأنها حقيقة.

وصار الناس لا يستقبلون الأخبار بعقولهم فقط، بل بجراحهم المسبقة، وعصبياتهم، ومخاوفهم، ورغباتهم في تصديق ما يوافق أهواءهم.

وهنا تزداد الحاجة إلى كلمة واحدة:

فتبينوا.

تبيّن قبل أن تشارك.
تبيّن قبل أن تغضب.
تبيّن قبل أن تتهم.
تبيّن قبل أن تجعل عرض إنسان مادة لعبورك السريع في ضجيج الناس.
تبيّن، لأن الزر الذي تضغطه قد يكون سهمًا في صدر بريء.

إن الآية لا تزال طازجة كأنها نزلت على قلب هذا العصر.
بل لعل هذا العصر من أكثر العصور حاجة إليها؛ لأن الشائعة لم تعد تمشي على قدمين، بل صارت تطير بأجنحة الضوء.

من التبين إلى الإصلاح

موضع هذه الآية قبل آيات الإصلاح بين المؤمنين له دلالة ظاهرة.
فالفتنة غالبًا تبدأ من خبر.
والاقتتال قد يبدأ من رواية.
والصدور قد تمتلئ من كلمة لم تثبت.

والجماعات قد تتباعد لأن ناقلًا فاسقًا أو غافلًا أشعل المعنى الخاطئ ثم انسحب.

لهذا تسبق آية التبين آيات الإصلاح.
كأن القرآن يريد أن يمنع الحريق قبل أن يأمر بإطفائه.
يريد أن يجفف منابع الفتنة قبل أن يعالج نتائجها.

فالوقاية المعرفية تسبق المعالجة الاجتماعية.
وحفظ العقل من الشائعة يسبق حفظ المجتمع من الخصومة.
ومن أهمل التبين، أكثر على نفسه وعلى غيره تكاليف الإصلاح.

خلاصة الفصل

آية ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾ ليست توجيهًا جزئيًا في خبر طارئ.
إنها قاعدة في بناء الوعي المسلم.

تقول للمؤمن:
لا تجعل أذنك طريقًا إلى ظلم الناس.
ولا تجعل غضبك بديلًا عن البينة.
ولا تجعل الناقل غير الأمين مهندسًا لمواقفك.
ولا تجعل الجهالة تقود يدك، ثم تأتي بالندم بعد خراب المعنى.

إنها آية تحرس المجتمع من الفوضى الإدراكية.
وتحرس الأخوة من الأخبار المسمومة.
وتحرس العدل من العجلة.
وتحرس القلب من مرارة أن يعرف الحقيقة بعد أن يكون قد ظلم.

وبهذا يظهر أن سورة الحجرات لا تبني مجتمعًا مهذب اللسان فحسب، بل تبني مجتمعًا مهذب العقل.

مجتمعًا لا يرفع صوته فوق النبوة، ولا يرفع ظنه فوق الحقيقة، ولا يرفع حماسته فوق العدل.

فالخبر في ميزان السورة أمانة.

والتثبت عبادة.

والتسرع جهالة.

والندم شاهد متأخر على أن العقل حين يغيب لحظة، قد يترك في الناس جرحًا لا يندمل سريعًا.

الفصل الرابع

فأصلحوا: العدل حين يصير عبادة اجتماعية

قال تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

بعد آية التبين تأتي آية الإصلاح.

وهذا ترتيب بالغ الحكمة؛ لأن الخبر إذا تُرك بلا تثبت صار فتنة، والفتنة إذا تُركت بلا إصلاح صارت قتالًا، والقتال إذا تُرك بلا عدل صار تمزيقًا طويلًا في جسد الأمة.

في الآية السابقة حفظ القرآن العقل من جهالة الخبر.
وفي هذه الآية يحفظ الجماعة من جهالة الخصومة.

فالقرآن لا يتعامل مع المجتمع المؤمن بوصفه مجتمعًا ملائكيًا لا يقع فيه النزاع. بل يواجه الواقع كما هو: قد يختلف المؤمنون، وقد يتدافعون، وقد تشتد الخصومة حتى تبلغ حد الاقتتال. لكن عظمة المنهج القرآني أنه لا يجعل وقوع النزاع نهاية الأخوة، ولا يجعل الأخوة غطاءً لترك الظلم، ولا يجعل الإصلاح مجرد عاطفة رخوة تخاف من تسمية البغي بغيًا.

إنه ينظر إلى الجرح، ويسميه، ثم يضع عليه دواءه.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾

لم تنزع الآية عن الطائفتين وصف الإيمان بمجرد وقوع الاقتتال.
وهذا من عدل القرآن ودقته.
فالمعصية، وإن عظمت، لا تمحو أصل الإيمان بإطلاق إلا بناقض معتبر.
والقتال بين المؤمنين جريمة خطيرة، لكنه لا يلغي وصف الأخوة الإيمانية من أصلها.

ولذلك قال بعدها: **﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾**

أي لا تقفوا متفرجين.
لا تتركوا النار تبحث عن حطبها.
لا تقولوا: هذه فتنتهم وحدهم.
لا تجعلوا الحياد البارد فضيلة حين يكون الإصلاح واجبًا.

إن المجتمع المؤمن ليس حشدًا من أفراد متجاورين، بل جسد أخلاقي.
وإذا اشتعل موضع منه، فليس لبقية الجسد أن يتفرج على النار.

الإصلاح ليس مجاملة

كثيرًا ما تُفهم كلمة الإصلاح فهمًا لينًا ناقصًا، كأنها مجرد دعوة عامة إلى التهدئة، أو مصافحة عابرة بين طرفين، أو كلمات طيبة تُقال فوق جرح لم يُنظف.

لكن القرآن لا يريد إصلاحًا تجميليًا.
يريد إصلاحًا يقوم على الحق.

لذلك قال: ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾

هنا يظهر أن الإصلاح ليس مساواة ميكانيكية بين الظالم والمظلوم.
وليس حيادًا أمام البغي.
وليس خوفًا من المواجهة باسم الحكمة.
بل هو ردّ الأمور إلى أمر الله.

فإذا وقع الاقتتال، كان الأصل الإصلاح.
فإذا ظهر البغي، صار الواجب ردع الباغي.
فإذا فاء، عاد الواجب إلى الإصلاح بالعدل والقسط.

هذا ميزان مهيب.
فيه رحمة، لكن ليست رحمة عمياء.
وفيه قوة، لكنها ليست قوة انتقامية.
وفيه إصلاح، لكنه ليس إصلاحًا على حساب الحق.

إن القرآن لا يسمح بأن يتحول شعار السلم إلى حماية للعدوان.
ولا يسمح بأن تُترك الفئة الباغية تتمادى لأن الناس يخافون من كلفة ردعها.
فالسلم الذي يبتلع العدل ليس سلمًا، بل تأجيل للانفجار.
والإصلاح الذي لا يردع البغي ليس إصلاحًا، بل تسكين لسطح الجرح وترك للقيح في أعماقه.

حتى تفيء إلى أمر الله

تأمل قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾

لم يقل: حتى تُهزم.
ولا: حتى تُذل.
ولا: حتى تنتقموا منها.
بل قال: **حتى تفيء إلى أمر الله**.

فالغاية ليست كسر الخصم، بل إعادته إلى الحق.
وليست تصفية الحساب، بل استعادة الميزان.
وليست نشوة الغلبة، بل انتهاء البغي.

وهذا فرق جوهري بين العدل الرباني والانفعال البشري.
فالإنسان حين يواجه البغي قد يستدرجه الغضب إلى بغي مقابل.
وقد يبدأ مدافعًا عن الحق، ثم يتحول إلى منتقم لنفسه.
وقد يرفع شعار الإصلاح، ثم يجد في المعركة فرصة لتصفية خصومات قديمة.

أما القرآن فيضبط القوة بغاية واضحة:
الفيء إلى أمر الله.

فإذا رجع الباغي، توقفت المعركة.
لأن المقصود تحقق العدل، لا إشباع الغضب.

فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

قال تعالى: ﴿**فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**﴾

لم يقل: فإن فاءت فانتهى الأمر.
بل قال: **فأصلحوا**.

لأن توقف القتال ليس نهاية الإصلاح.
قد تسكت البنادق وتبقى القلوب ملتهبة.
وقد تتوقف الخصومة في ظاهرها وتظل أسبابها كامنة.
وقد يرجع الباغي عن بغيه، لكن آثار البغي تحتاج إلى معالجة، وحقوق الناس تحتاج إلى رد، والجراح تحتاج إلى إنصاف.

ولهذا قيد الإصلاح هنا بالعدل: ﴿**بِالْعَدْلِ**﴾

العدل هو الذي يمنع الصلح من أن يصير صفقة على حساب الضعيف.
والعدل هو الذي يمنع المنتصر من الطغيان.
والعدل هو الذي يحفظ للمظلوم حقه دون أن يحول مظلوميته إلى رخصة للظلم المضاد.

ثم قال: ﴿**وَأَقْسِطُوا**﴾

والقسط أبلغ في معنى العدل الظاهر المنضبط الذي تُعطى فيه الحقوق بموازين مستقيمة.
كأن الآية تؤكد: لا يكفي أن تريدوا الإصلاح، بل يجب أن تقيموه بميزان القسط.

فكم من مصالحات ظاهرها الهدوء وباطنها ظلم.
وكم من تسويات تُغلق الملف ولا ترد الحق.
وكم من وساطات تساوي بين الجاني والمجني عليه، لا لأن الحق غامض، بل لأن القائمين عليها يريدون الراحة لا العدالة.

والقرآن لا يبارك راحة تُبنى على هضم الحقوق.
إنه يريد سلمًا مشرفًا، لا سلمًا يدفن المظالم تحت الرماد.

إن الله يحب المقسطين

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾

ما أرفع هذه الخاتمة.

لم يقل فقط: إن الله يأمر بالقسط.
بل قال: **يحب المقسطين**.

والحب هنا يمنح العدل معنى روحيًا عظيمًا.
فالإنسان حين يقسط بين الناس لا يؤدي واجبًا اجتماعيًا فحسب، بل يدخل في مقام محبوبية الله.
يصير العدل عبادة.
وتصير الوساطة الصادقة قربة.
ويصير الإنصاف بين المتخاصمين عملًا من أعمال القلوب لا مجرد مهارة في إدارة النزاع.

إن الله يحب الذين لا تأخذهم العصبية عن الحق.
يحب الذين لا يبيعون العدل طلبًا لرضا جماعة.
يحب الذين يقفون في موضع الميزان حين تتلاطم الأهواء.
يحب الذين يرون المظلوم قبل أن يروا نسبه، ويرون الحق قبل أن يروا اسم صاحبه.

ومن أحبّه الله لأنه أقسط، فقد فاز في موضع تكثر فيه الخيانات الدقيقة.
فالعدل عند الخصومة صعب.
والقسط بين المتنازعين أثقل من الكلام عنه في أوقات السلم.
والإنسان لا يعرف حقيقة إنصافه حتى يقف الحق في جهة لا توافق هواه.

إنما المؤمنون إخوة

ثم جاءت الجملة الجامعة: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

هذه الآية ليست تعليقًا لطيفًا بعد آية القتال.
إنها الأصل الذي يُفهم به الأمر كله.

الاقتتال عارض.
والأخوة أصل.
والبغي انحراف.
والإصلاح عودة إلى مقتضى الأصل.

﴿**إِنَّمَا**﴾ أداة حصر.
كأن الآية تقول: ليست العلاقة بين المؤمنين علاقة مصلحة طارئة، ولا تحالفًا سياسيًا عابرًا، ولا مجاملة اجتماعية، بل أخوة.

والأخوة في القرآن ليست مجرد شعور.
إنها مسؤولية.
ليست أن تحب أخاك حين يوافقك فقط، بل أن تحفظ له حق الأخوة حين يخاصم، وأن تمنعه من الظلم حين يطغى، وأن تنصره برده إلى الحق إن جار، وأن تصلح بينه وبين أخيه إذا فسد ما بينهما.

من هنا نفهم أن الأخوة ليست ضد العدل.
بل العدل من لوازم الأخوة.

فمن ترك أخاه يبغي لم يحفظ أخوته.
ومن سكت عن ظلم أخيه لأخيه خان الاثنين معًا: خان المظلوم لأنه لم ينصره، وخان الظالم لأنه تركه يتورط في ظلمه.

الأخوة الحقيقية ليست عاطفة رخوة، بل وفاء صارم للحق.

فأصلحوا بين أخويكم

قال تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾

بعد أن قال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ عاد إلى الأمر بالإصلاح.
لأن الأخوة إذا لم تتحول إلى فعل عند النزاع، صارت شعارًا معلقًا في الهواء.

والتعبير بـ ﴿**أَخَوَيْكُمْ**﴾ بعد ذكر الطائفتين لافت.
الطائفتان في الواقع قد تكونان جماعتين كبيرتين، لكن القرآن يعيدهما إلى معنى الأخوين.
يصغر صورة النزاع أمام معنى القرابة الإيمانية.

ينزع عن الخصومة تضخمها، ويرد المتخاصمين إلى أصل جامع: أنتم، مهما اتسع الخلاف، أخوان في ميزان الإيمان.

وهذا الأسلوب القرآني يعالج نفسية النزاع.
فالخصومة حين تشتد تميل إلى نزع الإنسانية، ونزع الأخوة، ونزع المشتركات.
كل طرف يرى الآخر كتلة من الشر، أو عنوانًا للعداء، أو خطرًا مجردًا.
لكن القرآن يعيد الاسم الأول: **أخويكم**.

ليس معنى ذلك إلغاء الخطأ.
ولا تمييع البغي.
ولا التسوية بين الحق والباطل.
بل معناه أن الإصلاح ينبغي أن يجري داخل أفق الأخوة، لا داخل رغبة الإبادة المعنوية.

واتقوا الله لعلكم ترحمون

تختم الآية بقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

التقوى هنا ضرورية؛ لأن الإصلاح بين الناس موضع خطر.
قد يدخل فيه الهوى.
وقد تتسلل إليه العصبية.
وقد يزين الإنسان لنفسه أنه مصلح، وهو في الحقيقة يميل إلى طرفه.
وقد يرفع شعار الحكمة، وهو يهرب من قول الحق.

وقد يدّعي العدل، وهو يخاف الأقوياء.
وقد يريد إنهاء النزاع بأي ثمن، ولو كان الثمن كرامة المظلوم.

لذلك قال: **واتقوا الله**.

اتقوه في الباغي، فلا تظلموه بعد أن يفيء.
واتقوه في المظلوم، فلا تضيعوا حقه باسم الصلح.
واتقوه في الجماعة، فلا تتركوها فريسة للشقاق.
واتقوه في ألسنتكم، فلا تزيدوا النار نارًا.
واتقوه في نياتكم، فلا تجعلوا الإصلاح بابًا للوجاهة أو الغلبة أو تصفية الحساب.

ثم قال: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

كأن الرحمة العامة معلقة بقيام المجتمع بواجب الإصلاح.
فالمجتمع الذي يصلح بين أبنائه يستنزل الرحمة.
والمجتمع الذي يترك الخصومات تكبر، والأحقاد تتراكم، والبغي يتمادى، يحرم نفسه من باب عظيم من أبواب الرحمة.

فالرحمة ليست شعورًا يطلب بالكلام فقط.
تطلب بالعدل.
تطلب بالإصلاح.
تطلب بإطفاء النار قبل أن تأكل البيوت والقلوب.

الإصلاح وفقه العمران

إذا فتحنا التأمل المنضبط في هذه الآيات، وجدنا أنها تؤسس فقهًا كاملًا للعمران الأخلاقي.

فالمجتمع لا يبقى صالحًا بمجرد وجود القيم المعلنة.
يبقى صالحًا حين توجد آليات أخلاقية لإعادة الحق إذا اختل.
كل مجتمع معرض للنزاع.
لكن الفارق بين مجتمع حي ومجتمع متآكل أن الأول يملك قدرة على الإصلاح، والثاني يترك جراحه تتعفن حتى تتحول إلى ذاكرة سوداء.

والقرآن هنا لا يكتفي بالوعظ عن الأخوة.
بل يضع خطوات واضحة:

أولًا: الاعتراف بوقوع النزاع.
ثانيًا: السعي إلى الإصلاح.
ثالثًا: ردع البغي إن ظهر.
رابعًا: إيقاف الردع عند رجوع الباغي إلى أمر الله.
خامسًا: استئناف الإصلاح بالعدل.
سادسًا: إقامة القسط.
سابعًا: استحضار الأخوة والتقوى والرحمة.

هذه ليست عاطفة عامة.
إنها هندسة أخلاقية للنزاع.

والقرآن بذلك يرفض صورتين فاسدتين:

الصورة الأولى: مثالية كاذبة تتجاهل أن المؤمنين قد يقتتلون، فتفاجأ بالواقع ثم تنهار.
والصورة الثانية: واقعية فاسدة تستسلم للنزاع وتعدّه قدرًا لا يعالج.

أما القرآن فيرى الواقع، لكنه لا يستسلم له.
يعترف بالجرح، لكنه لا يتركه ينزف.

الحياد حين يكون خيانة

في أوقات الخصومة يكثر من يمدحون الحياد.
والحياد قد يكون عدلًا إذا غاب الحق ولم تظهر البينة.
لكنه قد يكون خيانة إذا ظهر البغي.

الآية واضحة: ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي**﴾

فحين يتبين الظلم، لا يكون الوقوف في المنتصف فضيلة.
قد يكون المنتصف هنا مكانًا مريحًا للمتفرج، لكنه ليس مكانًا عادلًا.

ليس المطلوب أن يكون الإنسان مندفعًا في الحكم قبل التبين؛ فقد سبقت آية ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾.
لكن بعد التبين لا يصح أن يتحول الخوف إلى حكمة مزيفة.

فالعدل له كلفة.
والإصلاح له كلفة.
والقسط له كلفة.

ومن أراد إصلاحًا لا يغضب أحدًا، ولا يواجه بغيًا، ولا يرد حقًا، فليس مصلحًا على طريقة القرآن، بل مسالمًا مع الفوضى.

الإصلاح يبدأ من الداخل

ومع أن الآيات تتحدث عن طائفتين، إلا أن معناها يمتد إلى داخل الفرد نفسه.

في الإنسان طوائف متنازعة:
غضب يدعوه للانتقام.
وتقوى تدعوه للعدل.
هوى يريد الغلبة.
وضمير يريد الإنصاف.
ذاكرة جريحة تريد الثأر.
وإيمان يريد الفيء إلى أمر الله.

ولا يستطيع الإنسان أن يكون مصلحًا بين الناس حتى يبدأ بشيء من الإصلاح في داخله.
من لم يقسط في نفسه، يصعب أن يقسط بين غيره.
ومن كان قلبه مأخوذًا بعصبية خفية، ستخرج هذه العصبية في أحكامه ولو لبست ثوب العقل والحكمة.

لذلك كانت التقوى ختام الآية.
لأن الإصلاح الخارجي لا يستقيم إلا بقلب يخاف الله.

خلاصة الفصل

تضع سورة الحجرات في هذه الآيات قاعدة كبرى:
الأخوة لا تعني غياب النزاع، بل تعني وجوب الإصلاح عند النزاع.
والإصلاح لا يعني الحياد أمام البغي، بل يعني رد الناس إلى أمر الله.
والردع لا يعني الانتقام، بل يعني وقف الظلم.
والصلح لا يكتمل إلا بالعدل والقسط.

إنها آيات تبني مجتمعًا لا يسمح للخبر أن يصير فتنة، ولا للفتنة أن تصير اقتتالًا، ولا للاقتتال أن يصير قطيعة نهائية، ولا للصلح أن يصير ظلمًا مغلفًا.

وفي قلب ذلك كله تضع السورة جملتها النورانية: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

أي إن ما يجمعكم أعمق من نزاعكم، وما بينكم من الإيمان أعظم من طارئ الخصومة، لكن هذا المعنى لا يحيا بالكلام، بل بالإصلاح، والعدل، والقسط، والتقوى.

فالمجتمع المؤدب بالوحي ليس مجتمعًا بلا خصومات، بل مجتمع لا يترك الخصومات تتحول إلى قدر.
إنه مجتمع يملك شجاعة التبين قبل الحكم، وشجاعة الإصلاح بعد النزاع، وشجاعة ردع البغي إذا ظهر، وشجاعة العدل حين يعود الناس إلى السلم.

وهكذا تتحول الأخوة من كلمة جميلة إلى نظام حياة.
وتصير الرحمة ثمرة مجتمع لا يبيع الحق باسم الصلح، ولا يبيع الصلح باسم الغضب، بل يقيم بينهما ميزان الله.

الفصل الخامس

إنما المؤمنون إخوة: من رابطة العقيدة إلى واجب الإصلاح

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

هذه الآية هي قلب سورة الحجرات الاجتماعي.

فإذا كانت الآيات الأولى قد أسست أدب المؤمن مع الله ورسوله، وإذا كانت آية التبين قد أسست أدبه مع الخبر، وإذا كانت آية الاقتتال قد أسست أدبه مع النزاع؛ فإن هذه الآية تؤسس المعنى الجامع الذي تقوم عليه كل تلك التكاليف: **الأخوة الإيمانية**.

لكن القرآن لا يذكر الأخوة هنا على طريقة العبارات العاطفية التي تستعمل لتجميل المجالس.
إنه يذكرها بعد الاقتتال.
يذكرها في موضع الجرح.
يذكرها حين تكون الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى إنشادها.

وهنا تظهر قوة التعبير القرآني.
فالأخوة لا تختبر عند الصفاء، بل عند الخصومة.
ولا تظهر حقيقتها حين تكون النفوس راضية، بل حين يغضب الإنسان، ويتأذى، ويجد في نفسه قدرة على الهجر والانتقام والإساءة.

أن تقول لأخيك: أنت أخي، وهو يوافقك، فهذا يسير.
لكن أن تحفظ أصل الأخوة حين يخالفك، وأن تمنعه من الظلم إن ظلم، وأن تطلب له الرجوع إلى أمر الله لا السقوط من عينك، وأن تصلح بينه وبين غيره بالعدل، فهذا هو المعنى القرآني للأخوة.

إنما: حصر المعنى وتطهير الرابطة

افتتحت الآية بـ ﴿**إِنَّمَا**﴾.

وهذه الأداة تمنح الجملة قوة الحصر والتقرير.
كأن القرآن يقول: ليس المؤمنون إلا إخوة في مقتضى إيمانهم.
قد تختلف ألوانهم، وألسنتهم، وأنسابهم، وبلدانهم، ومصالحهم، وطبائعهم، لكن أصل الرابطة التي جمعتهم بالإيمان يجعلهم داخل معنى الأخوة.

الأخوة هنا ليست إلغاءً للاختلافات الطبيعية، بل ضبط لها داخل معنى أعلى.
فالإيمان لا يلغي القبيلة، لكنه يمنعها من أن تتحول إلى صنم.
ولا يلغي الانتماء إلى الأرض، لكنه يمنعه من أن يطغى على الحق.
ولا يلغي الخصوصيات الاجتماعية، لكنه يمنعها من أن تكون معيار الكرامة والاحتقار.

الأخوة الإيمانية ليست ذوبانًا هلاميًا، بل رابطة تهذب الفروق.
تجعل التعدد قابلًا للرحمة، وتجعل الاختلاف قابلًا للعدل، وتجعل الاجتماع قائمًا على معنى أعمق من الدم والمصلحة.

المؤمنون: رابطة مبنية على الوحي

قال تعالى: ﴿**الْمُؤْمِنُونَ**﴾

لم يقل: العرب إخوة.
ولا: القبيلة إخوة.
ولا: أهل البلد إخوة.
بل قال: **المؤمنون**.

وهذا لا ينفي ما بين الناس من روابط الفطرة والرحم والجوار، لكنه يضع الرابطة الإيمانية في مقامها الأعلى.
فالإيمان يصنع أخوة لا تقوم على المصلحة العاجلة، ولا على مجرد النسب، ولا على العرق، بل على الانتماء إلى الله، والوقوف تحت هداية واحدة، والاتجاه إلى مصير واحد.

إنها أخوة لا تبدأ من الأرض، بل من السماء.
ولا تتأسس على الحاجة، بل على الهداية.
ولا يحرسها العرف وحده، بل يحرسها الأمر الإلهي.

ولهذا كانت أعمق من الأخوة السياسية، وأطهر من العصبية القبلية، وأبقى من التحالفات المتغيرة.
فالتحالف ينتهي بانتهاء المصلحة.
والعصبية تنقلب إذا تغيرت موازين القوة.
أما أخوة الإيمان فتبقى ما بقي أصلها: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

إخوة: الكلمة التي تمنع التوحش

قوله تعالى: ﴿**إِخْوَةٌ**﴾

كلمة واحدة، لكنها تمنع المجتمع المؤمن من التوحش.

لأن الخصومة إذا فقدت معنى الأخوة تحولت إلى إبادة معنوية.
يريد الإنسان عندها أن يمحو خصمه، لا أن يرده إلى الحق.
أن يشمت به، لا أن يصلحه.
أن يراه ساقطًا من كل كرامة، لا أخًا عثر أو بغى أو أخطأ.

الأخوة لا تعني تبرئة المخطئ.
ولا تعني تمييع الحق.
ولا تعني السكوت على البغي.
إنها تعني أن المخطئ لا يتحول في وعينا إلى عدم.
وأن الباغي يُرد إلى أمر الله لا إلى هوة التشفي.
وأن المظلوم يُنصر بالعدل لا بالتحريض الأعمى.
وأن المجتمع لا يسمح للخصومة أن تلغي أصل الانتماء الإيماني.

الأخوة هنا حدّ أخلاقي أمام نزعة التدمير.
تقول للمؤمن: خاصم إن اضطررت، لكن لا تفجر.
احكم بالحق، لكن لا تظلم.
ردع البغي، لكن لا تفرح بتحطيم الإنسان.
انصر المظلوم، لكن لا تجعل نصرتك بابًا لبغي جديد.

فأصلحوا: الأخوة تكليف لا عاطفة فقط

قال تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾

الفاء هنا كأنها تخرج التكليف من رحم المعنى السابق.
ما دام المؤمنون إخوة، فالإصلاح بينهم واجب.
ليست الأخوة كلمة معلقة، بل مسؤولية نازلة على الواقع.

ومن أعجب ما في الآية أنها لم تقل: فأحبوا أخويكم فقط.
ولا قالت: فاذكروا فضل الأخوة فقط.
بل قالت: **فأصلحوا**.

لأن الحب الذي لا يصلح عند الفساد حب ناقص.
والأخوة التي لا تنهض عند النزاع أخوة ضعيفة.
والإيمان الذي لا يترجم إلى عمل اجتماعي يبقى معنى محبوسًا في الوجدان.

الإصلاح هنا فعل إيماني.
فيه بذل وقت.
وفيه تحمل أذى.
وفيه سماع من الطرفين.
وفيه احتمال لسوء الظن.
وفيه وقوف أمام الهوى.
وفيه مشقة قول الحق لمن تحب، ولمن تخاف، ولمن لا تريد أن تخسره.

ولهذا لا يقدر على الإصلاح حقًا إلا من عظمت في قلبه حرمة الجماعة، وخفّ في نفسه سلطان الذات.

بين أخويكم: إعادة تسمية المتخاصمين

قال تعالى: ﴿**بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾

لم يقل: بين المتقاتلين.

ولا: بين الخصمين.

ولا: بين الطائفتين فقط.

بل قال: **أخويكم**.

وهذه إعادة تسمية قرآنية للواقع.

فالناس في الخصومة يبدلون الأسماء:

هذا عدوي.

هذا خصمي.

هذا غريمي.

هذا من جماعتهم.

هذا من أولئك.

أما القرآن فيعيد الاسم الأول: **أخويكم**.

إنه لا ينكر أن هناك خصومة، لكنه يرفض أن تكون الخصومة هي التعريف النهائي.

ولا ينكر أن هناك خطأ، لكنه لا يجعل الخطأ يمحو أصل الأخوة.

ولا يطلب من الناس أن يغمضوا أعينهم عن الظلم، لكنه يطلب أن يظل ميزانهم أخلاقيًا وهم يعالجونه.

وفي هذا التعبير رحمة عميقة بالمجتمع.
لأن أكبر خطر في النزاعات أن تتحول الأسماء المؤقتة إلى هويات دائمة.
يولد النزاع بسبب حادثة، ثم يصير نسبًا جديدًا للناس.
ينسى الجميع أصل الأخوة، ولا يبقى إلا قاموس العداوة.

والقرآن يقطع هذا الطريق من بدايته.
يقول: أصلحوا بين أخويكم.
أي تذكروا ما كان قبل الغضب، وما ينبغي أن يبقى بعده.

واتقوا الله: حتى لا يفسد الإصلاح

قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾

التقوى هنا ليست زينة ختامية.
إنها شرط الإصلاح.

لأن الإصلاح مجال واسع لتسلل الأهواء.
قد يدّعي الإنسان الإصلاح، وهو يريد حماية طرفه.
وقد يدّعي الحكمة، وهو يهرب من العدل.
وقد يدّعي الحرص على الجماعة، وهو يدفن حق الضعيف.
وقد يدّعي الشجاعة في قول الحق، وهو في الحقيقة ينتقم لنفسه.

لهذا يحتاج المصلح إلى تقوى أكثر مما يحتاج إلى فصاحة.
يحتاج إلى خوف من الله يمنعه من خيانة الميزان.
يحتاج إلى قلب لا يفرح بانكسار أحد، ولا يساوم على حق أحد.
يحتاج إلى عين ترى العاقبة، لا المكسب القريب.
ويحتاج إلى لسان يعرف متى يلين ومتى يشتد، ومتى يصمت ومتى يصرح.

الإصلاح ليس مهارة اجتماعية فقط.
إنه عبادة دقيقة.
والعبادات الدقيقة تحتاج إلى تقوى دقيقة.

لعلكم ترحمون: الرحمة ثمرة الاجتماع العادل

قال تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

كأن الرحمة الإلهية تنزل على المجتمع الذي يحرس أخوته من التمزق.
فالناس إذا أصلحوا بينهم، رحمهم الله.
وإذا أقاموا القسط، رحمهم الله.
وإذا لم يتركوا البغي يتمدد، رحمهم الله.
وإذا لم يسمحوا للخصومات أن تمزق نسيجهم، رحمهم الله.

والرحمة هنا ليست معنى غيبيًا منفصلًا عن الواقع.
من رحمة الله أن يحفظ المجتمع من الانهيار.
ومن رحمته أن يجعل بين الناس من يطفئ الفتنة.

ومن رحمته أن يردّ القلوب بعد وحشتها.
ومن رحمته أن يخرج الناس من ضيق الغضب إلى سعة الإنصاف.

المجتمع الذي لا يصلح بين أبنائه يطرد الرحمة من داخله، وإن أكثر الكلام عنها.
لأن الرحمة ليست أن نتأثر بالدموع بعد الخراب، بل أن نمنع أسباب الخراب قبل أن تقع.

الأخوة بين المثال والامتحان

من السهل أن نتكلم عن الأخوة بوصفها مثالًا جميلًا.
لكن سورة الحجرات تتكلم عنها بوصفها امتحانًا.

الأخوة تُمتحن حين يصل إليك خبر عن أخيك.
هل تتثبت أم تفرح بما يوافق ظنك؟
تُمتحن حين يخاصم أخوك أخاه.
هل تصلح أم تزيد النار؟
تُمتحن حين يخطئ من تحب.
هل تنصره بالباطل أم ترده إلى الحق؟
تُمتحن حين يُظلم من لا تحب.
هل تنصره لأنه مظلوم، أم تتركه لأن قلبك لا يميل إليه؟

هنا يظهر الفرق بين أخوة اللسان وأخوة الإيمان.
أخوة اللسان تقول: نحن إخوة ما دمنا متفقين.

أما أخوة الإيمان فتقول: نحن إخوة، ولذلك يجب أن نحتكم إلى الله حين نختلف.

الأخوة لا تلغي العدل

من أكثر الأخطاء انتشارًا أن تُستعمل الأخوة لإسكات المظلوم.
يقال له: سامح، نحن إخوة.
اصبر، نحن إخوة.
لا تفتح الجراح، نحن إخوة.

لكن القرآن لم يقل ذلك.
بل ذكر الأخوة بعد أن أمر بردع البغي والإصلاح بالعدل والقسط.

فالأخوة في القرآن لا تلغي حق المظلوم.
ولا تمنح الظالم حصانة.
ولا تجعل حفظ الصورة أهم من إصلاح الحقيقة.
إنها تمنع القطيعة، لكنها لا تمنع المحاسبة.
وتحفظ الرابطة، لكنها لا تبيح الجور.
وتطلب الرحمة، لكنها لا تبيع العدل.

إن أخوة بلا عدل تتحول إلى عصبية.
وعدل بلا أخوة قد يتحول إلى قسوة.
وسورة الحجرات تجمع الأمرين:
عدل يحرس الأخوة، وأخوة تهذب العدل.

من رابطة العقيدة إلى أدب الحياة اليومية

إذا رسخت الأخوة في القلب تغير سلوك الإنسان اليومي.

لن تكون الكلمة عنده سهلة إذا كانت تجرح أخاه.
ولن تكون الشائعة مادة تسلية إذا كانت تهدم كرامة أخيه.
ولن يكون الظن متعة داخلية يربي بها عداوته.
ولن يكون التجسس فضولًا بريئًا.
ولن تكون الغيبة مجلسًا خفيفًا.
لأنه يعرف أن أمامه أخًا، لا مادة للكلام.

ولهذا جاءت آية الأخوة قبل آيات النهي عن السخرية واللمز والتنابز والظن والتجسس والغيبة.
فالقرآن يضع الأصل قبل الفروع.
إذا عرفت أن المؤمن أخوك، هان عليك أن تكف لسانك عنه.
وإذا غاب معنى الأخوة، صار ضبط اللسان تكلفًا ثقيلًا.

الأخوة هي الأرض التي تنبت عليها أخلاق السورة.
من غيرها تصير النواهي أوامر خارجية.
بها تصير النواهي حماية لمعنى حبيب إلى القلب.

المجتمع المؤدب بالأخوة

المجتمع الذي تؤدبه هذه الآية ليس مجتمعًا يخلو من الخلاف، بل مجتمع يملك معنى أعلى من الخلاف.

ليس مجتمعًا بلا أخطاء، بل مجتمع لا يسمح للخطأ أن يصير هوية.
ليس مجتمعًا بلا نزاعات، بل مجتمع يملك شجاعة الإصلاح.

إنه مجتمع إذا جاءه خبر توقف.
وإذا وقع نزاع نهض.
وإذا ظهر بغي ردعه.
وإذا فاء الباغي أنصف.
وإذا تذكر الإيمان رأى في المتخاصمين أخوين، لا وقودًا لمعركة طويلة.

وهذا هو الفرق بين مجتمع يعيش بالشهوة الاجتماعية، ومجتمع يعيش بالتربية الربانية.

الشهوة الاجتماعية تحب الفضائح، وتفرح بالانقسام، وتبحث عن الوقود.
أما التربية الربانية فتحب الستر بلا تعطيل للعدل، والإصلاح بلا تمييع للحق، والرحمة بلا خيانة للميزان.

خلاصة الفصل

آية ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ ليست جملة عاطفية في هامش السورة.
إنها قلب البناء الاجتماعي فيها.

تقرر أن الإيمان لا يبني علاقة فردية بين العبد وربه فحسب، بل يبني شبكة أخلاقية بين المؤمنين.
وتقرر أن الأخوة ليست شعارًا، بل تكليف بالإصلاح.
وتقرر أن الإصلاح لا يستقيم إلا بالتقوى.

وتقرر أن الرحمة الإلهية أقرب إلى مجتمع يداوي جراحه بالعدل، لا إلى مجتمع يتركها تنزف باسم الحياد أو الخوف أو المجاملة.

إن الأخوة في سورة الحجرات ليست ضعفًا.
إنها قوة مهذبة.
وليست عاطفة بلا ميزان.
إنها رحمة محكومة بالعدل.
وليست دعوة إلى نسيان الحقوق.
إنها دعوة إلى رد الحقوق دون تمزيق الرابطة الكبرى.

وبهذا ينتقل المؤمن من فكرة الأخوة إلى واجبها، ومن جمال العبارة إلى كلفة العمل، ومن مجرد الانتماء إلى مسؤولية الإصلاح.

فالمؤمن لا يكون أخًا حقًا حتى يكره لأخيه الظلم، سواء وقع عليه أو صدر منه.
ولا يكون أخًا حقًا حتى يطلب له الفيء إلى أمر الله، لا السقوط في هاوية الغلبة والتشفي.
ولا يكون أخًا حقًا حتى يرى أن نجاة المجتمع من الفتنة جزء من عبادته لله.

وهكذا تعلمنا سورة الحجرات أن الأخوة ليست كلمة تقال عند الصفاء، بل عهد يظهر عند اشتداد الغبار.

الفصل السادس

لا يسخر قوم من قوم: حماية الكرامة من عبث اللسان

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾

بعد أن قررت السورة أصل الأخوة، انتقلت إلى حماية هذه الأخوة من أخطر ما يفتك بها في الحياة اليومية: **استخفاف الإنسان بكرامة أخيه**.

والانتقال هنا دقيق.

فالأخوة لا تُهدم دائمًا بالحروب الكبرى، ولا بالخصومات الظاهرة وحدها.

قد تُهدم بكلمة ضاحكة.

بإشارة عابرة.

بلقب جارح.

بغمزة خفية.

باستهانة تتخفى في ثوب المزاح.

بضحكة تخرج من فم، لكنها تقع على قلب إنسان كالحجر.

لذلك جاءت الآية بعد قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

كأن السورة تقول: إذا كان المؤمنون إخوة، فاحذروا أن تجعلوا مجالسكم مقاصل صغيرة لكرامة بعضكم بعضًا.
واحذروا أن يتحول اللسان، الذي ينبغي أن يكون أداة بيان ورحمة وإصلاح، إلى أداة هدم وتحقير وإزراء.

لا يسخر قوم من قوم

السخرية ليست مجرد ضحك.
إنها ضحك قائم على استصغار.
ليست فرحًا بريئًا، بل متعة مشوبة بإهانة الآخر.
هي أن يرى الإنسان في أخيه موضعًا للنقص، ثم يجعل هذا النقص مادة للهو أو التشفي أو إظهار التفوق.

والقرآن لا يبدأ هنا بتحريم صورة فاحشة من العدوان، بل يبدأ بشيء قد يراه الناس خفيفًا.
وهذه من عظمة السورة؛ لأنها لا تنتظر المرض حتى يصير جرحًا مفتوحًا، بل تمسك به في بدايته النفسية الأولى.

فالسخرية تبدأ من الداخل قبل أن تظهر على اللسان.
تبدأ حين يضع الإنسان نفسه في موضع أعلى من غيره.
حين ينظر إلى أخيه من شرفة وهمية.
حين ينسى أن ما عنده من عقل أو مال أو نسب أو جمال أو علم أو فصاحة أو جاه، كله عطاء مبتلى، لا تاج استعلاء.

ولهذا قال تعالى: ﴿**عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾

هذه الجملة تقطع جذور السخرية من أصلها.

فالساخر يبني سخريته على حكم ضمني: أنا خير منه.

والقرآن يرد عليه: وما يدريك؟

لعل من تسخر منه خير منك عند الله.

لعل ما تحتقره في ظاهره يخفي قلبًا أصدق من قلبك.

لعل ضعف عبارته يستر إخلاصًا لا تملكه.

لعل فقره أقرب إلى الله من غناك.

لعل بساطته أنقى من تعقيدك.

لعل عثرته الظاهرة أقل خطرًا من كبريائك الخفي.

إن السخرية قائمة على جهل الإنسان بموازين الله.

ولو عرف الإنسان أن الله يرى من عباده ما لا يراه الناس، لاستحيا أن يجعل ظاهرًا ناقصًا عنده سببًا للاحتقار.

عسى: كلمة تهدم يقين المتكبر

تأمل لفظ ﴿**عَسَىٰ**﴾.

إنها تفتح احتمالًا يزلزل يقين الساخر.

فالساخر يتكئ على حكم مغلق.

يظن أنه رأى كل شيء.

رأى مظهرًا، أو عيبًا، أو فقرًا، أو ضعفًا، أو خطأً، فحكم على الإنسان كله.

لكن القرآن يدخل عليه من باب الاحتمال: **عسى**.

عسى أن يكون من تسخر منه خيرًا منك.
عسى أن تكون أنت المحجوب عن حقيقته.
عسى أن يكون موضع احتقارك هو موضع امتحانك.
عسى أن يرفعه الله بما لا تعلم، ويضعك بما تظن أنك به مرتفع.

وهذه الكلمة وحدها تكفي لتربية القلب.
فمن عاش وفي قلبه **عسى** القرآنية، خفّت جرأته على الناس.
صار يرى أن باطن الإنسان أوسع من مظهره، وأن حكم الله أعمق من نظره، وأن الكرامة لا تقاس بموازين المجالس.

ولا نساء من نساء

قال تعالى: ﴿**وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾

خصّ النساء بالذكر بعد القوم، مع أن لفظ القوم قد يدخل فيه العموم في بعض الاستعمالات، وذلك للعناية والتنبيه على أن هذا الداء يجري في المجتمعات كلها، بين الرجال والنساء، في المجال العام والخاص، في مجالس القوة ومجالس الأنس، في صخب السياسة وفي همس البيوت.

فالقرآن لا يترك منفذًا للإنسان كي يظن أن الخطاب لغيره.
إنه يواجه الجميع: لا يسخر قوم من قوم، ولا نساء من نساء.

السخرية ليست مرض طبقة دون طبقة.
قد يسخر الغني من الفقير، وقد يسخر الفقير من الغني.
قد يسخر المتعلم من العامي، وقد يسخر العامي من المتعلم.

قد يسخر صاحب النسب من غيره، وقد يسخر المحروم ساخرًا من حقده.
المرض واحد: أن يجد الإنسان لذة في إنقاص غيره.

والقرآن يريد أن يطهر هذه اللذة من أصلها.

ولا تلمزوا أنفسكم

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**﴾

لم يقل: ولا تلمزوا إخوانكم.
بل قال: **أنفسكم**.

وهذا تعبير بالغ الجمال والدقة.
لأن المؤمنين، بما بينهم من رابطة الأخوة، كالجسد الواحد.
فمن لمز أخاه، فكأنما لمز نفسه.
ومن جرح كرامة أخيه، فقد جرح المعنى الذي ينتمي إليه.
ومن أسقط أخاه، أسقط شيئًا من بنيان الجماعة التي هو جزء منها.

اللمز هو الطعن الخفي، والإشارة الجارحة، والعبارة التي تحمل أكثر مما تظهر، والكلمة التي لا تصرح بالإهانة لكنها توصلها كاملة.
إنه فن مريض من فنون الأذى.
لا يملك شجاعة المواجهة الصريحة، ولا طهارة النصيحة الصادقة، فيلجأ إلى الغمز والتعريض.

واللمز أخطر أحيانًا من السب المباشر؛ لأنه يتخفى.
يعطي صاحبه فرصة الإنكار.

يقول الكلمة ثم يقول: لم أقصد.
يطعن ثم يبتسم.
يجرح ثم يلبس جرحه ثوب المزاح أو الملاحظة العابرة.

لكن القرآن يكشف هذه المنطقة الخفية.
لا يترك للإنسان أن يتوارى خلف مراوغة اللسان.
يقول له: لا تلمزوا أنفسكم.
لا تحولوا أخوتكم إلى مسرح للطعن المستور.

النفس الجماعية في القرآن

قوله تعالى: ﴿**أَنفُسَكُمْ**﴾

يفتح معنى عظيمًا: أن المجتمع المؤمن له نفس معنوية واحدة.
ليس معنى ذلك أن الأفراد يذوبون، بل أن كراماتهم متصلة.
حين يُهان واحد منهم بغير حق، لا يبقى الأثر محصورًا فيه.
ينتشر الخلل في الجو كله.
يشعر الناس أن الكرامة لم تعد محروسة.
وأن اللسان صار متفلتًا.
وأن من سكت اليوم على لمز غيره، قد يكون غدًا مادة للّمز نفسه.

ولهذا فإن صيانة الكرامة الفردية صيانة للمجتمع كله.
وإهانة الفرد بغير حق تسميم للفضاء العام.

إن القرآن لا يبني مجتمعًا يقوم على الخوف من الألسنة.
بل يبني مجتمعًا يأمن فيه الإنسان أن يكون موضع استباحة نفسية.

مجتمعًا لا يحتاج فيه كل فرد إلى دروع دائمة أمام مجالس الناس؛ لأن التقوى تحرس الألسنة قبل أن تجرح.

ولا تنابزوا بالألقاب

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾

اللقب قد يكون تعريفًا، وقد يكون تشريفًا، وقد يكون أذى.
والمنهي عنه هنا ما كان على وجه التنقص والعيب والإهانة، حين يُختزل الإنسان في وصف يكرهه، أو خطأ قديم، أو عيب ظاهر، أو ماضٍ تاب منه، أو ضعف لا يملك دفعه.

التنابز بالألقاب جريمة في حق الاسم الإنساني.
فالاسم في أصله نداء للكرامة.
حين تنادي الإنسان باسمه، فأنت تعترف بوجوده كما هو.
أما حين تنبزه بلقب جارح، فأنت لا تناديه، بل تطعنه.
تستبدل اسمه، الذي هو علامة شخصه، بوصمة تريد أن تحبسه داخلها.

وهذا من أبشع ما تصنعه المجتمعات حين تفسد.
تجعل للناس ألقابًا كالقيود.
من أخطأ مرة صار اسمه خطأه.
ومن ابتلي بصفة صار اسمه بلاءه.
ومن ضعف في موطن صار اسمه ضعفه.
ومن خالف جماعة صار اسمه ما تقذفه به الجماعة.

والقرآن يقطع هذا العبث.
لا تجعلوا الناس أسرى ألقابكم.
لا تختزلوا إنسانًا في كلمة جارحة.
لا تصنعوا من اللسان سجنًا معنويًا.

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان

قال تعالى: ﴿**بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ**﴾

هذا تعبير شديد.
كأن القرآن يقول: ما أقبح أن يحمل المؤمن اسم الفسوق بعد أن شرّفه الله باسم الإيمان.

لقد دخل في الإيمان، فصار له اسم كريم.
ثم يعود بسلوكه إلى أسماء الفسق: ساخر، لامز، متنابز، مؤذٍ، متكبر، جارح للكرامات.

الإيمان ليس لقبًا يعلق على الإنسان ثم يبقى ولو أساء إلى الخلق.
الإيمان يطالب صاحبه أن يطهر لسانه من آثار الجاهلية.
فمن بقيت فيه أخلاق الاحتقار، فقد بقي فيه من الفسوق بقدر ما بقي من تلك الأخلاق.

وهنا يظهر أن السورة لا تفصل بين العقيدة والأدب.
لا تقول: آمن بقلبك، ثم دع لسانك يعبث بالناس.
بل تقول: إذا آمنت، فينبغي أن يتغير قاموسك.

ينبغي أن تتغير طريقتك في النظر، والنداء، والمزاح، والحكم، والتعامل مع عيوب الناس.

إن الإيمان ليس فكرة في الرأس فقط.
إنه تهذيب للسان حين يقدر على الإهانة، وتهذيب للعين حين ترى موضع النقص، وتهذيب للقلب حين يشعر بالتفوق.

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون

تختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾

لم تترك الآية الأمر في دائرة الذوق الاجتماعي.
جعلته ظلمًا.

فالساخر ظالم.
واللامز ظالم.
والمتنابز بالألقاب ظالم.
ليس خفيف الروح كما يتوهم.
وليس صاحب دعابة بريئة إذا كانت دعابته تجرح.
وليس قوي الشخصية إذا كانت قوته قائمة على إهانة الضعفاء.
إنه ظالم.

وهنا يضع القرآن الكلمة في موضعها الأخلاقي الصحيح.
لأن الناس كثيرًا ما يخففون جرائم اللسان.
يقولون: كلمة ومضت.
ضحكة وانتهت.

مزاح لا أكثر.
لكن الذي تلقى السخرية لم تنتهِ عنده.
قد تبقى في ذاكرته.
قد تغير نظرته إلى نفسه.
قد تكسر شيئًا في داخله.
قد تجعله يخاف المجالس، أو يكره الظهور، أو يحمل جرحًا لا يراه أحد.

والقرآن لا يقيس الأذى بخفته على فم القائل، بل بأثره في كرامة المقول فيه.

لذلك قال: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ**﴾

أي إن هذا الباب يحتاج إلى توبة.
ليس المطلوب فقط تحسين الأسلوب مستقبلًا، بل الاعتراف بأن ما وقع كان ظلمًا يحتاج إلى رجوع.
توبة إلى الله، ورد اعتبار للمؤذى إن أمكن، وتربية للنفس حتى لا تعود إلى لذة الاحتقار.

السخرية بوصفها مرضًا حضاريًا

إذا وسعنا التأمل، وجدنا أن السخرية ليست عيبًا فرديًا فحسب، بل قد تصير مرضًا حضاريًا.
حين تفقد المجتمعات معاني الرحمة، تتحول السخرية إلى ثقافة.
يصير الاستهزاء ذكاء.
والإهانة خفة ظل.

والطعن في الناس مادة للترفيه.
والاستهانة بالضعفاء دليلًا على الحضور.

في مثل هذا المجتمع يخاف الناس من الظهور لا لأنهم بلا مواهب، بل لأنهم يخشون الألسنة.
وتنكمش النفوس الحساسة.
ويتعلم الناس إخفاء عيوبهم لا طلب إصلاحها.
ويصير الإنسان مشغولًا بحماية صورته أكثر من تهذيب حقيقته.

أما سورة الحجرات فتريد مجتمعًا لا يُربّى فيه الإنسان على الرعب من الازدراء، بل على الطمأنينة إلى أن كرامته مصونة.

إنها لا تمنع النقد.
ولا تمنع النصيحة.
ولا تمنع البيان الصادق للخطأ.
لكنها تمنع تحويل الخطأ إلى مسرح للسخرية.
فرق بين أن تصحح للإنسان، وأن تحطمه.
فرق بين أن تنصحه، وأن تفضحه.
فرق بين أن تعينه على الخروج من نقصه، وأن تجعله سجينًا فيه.

الفرق بين النقد والسخرية

النقد يريد إصلاح المعنى.
السخرية تريد إسقاط الشخص.

النقد يستند إلى بينة.
السخرية تستند إلى استعلاء.

النقد قد يكون شديدًا، لكنه عادل.
السخرية قد تكون ناعمة، لكنها ظالمة.

النقد يخاطب الفعل أو الفكرة.
السخرية تلتهم الكرامة.

ولهذا لا ينبغي أن تختبئ السخرية خلف اسم النقد.
فليس كل من جرح كان ناقدًا.
ولا كل من أضحك الناس كان صاحب بصيرة.
قد يكون ضحك الناس شاهدًا على فساد ذوقهم، لا على صدق كلامه.

والقرآن هنا لا يحارب العقل الناقد، بل يحارب النفس المحتقرة.
لا يمنع أن يقال للمخطئ: أخطأت.
لكنه يمنع أن يقال له ذلك بروح تسحق إنسانيته.

حين يسخر الإنسان من نفسه

ومن لطائف قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**﴾

أن من يلمز أخاه يلمز نفسه من وجه آخر: لأنه يكشف نقصه هو.
فاللسان الجارح مرآة قلب جريح أو متكبر.
والساخر يظن أنه يفضح نقص غيره، لكنه كثيرًا ما يفضح اضطراب نفسه.

لو كان ممتلئًا بالرحمة، لما احتاج إلى احتقار.
ولو كان واثقًا بما عنده، لما جعل من إنقاص الآخرين طريقًا لرفع ذاته.

السخرية ضعف متخفٍّ في صورة قوة.
لأن القوي حقًا لا يحتاج إلى سحق الضعيف ليشعر بوجوده.
والكريم لا يجد لذة في تعرية الناس.
ومن عرف عيوب نفسه، استحيا أن يتخذ عيوب الناس مادة للضحك.

التربية على حرمة الكرامة

هذه الآية تربي المؤمن على أن كرامة الإنسان ليست أمرًا هامشيًا.
فالإنسان عند الله ليس مادة للتندر.
وليس خطؤه كله هويته.
وليس عيبه الظاهر كل حقيقته.
وليس فقره، ولا شكله، ولا لهجته، ولا طبقته، ولا ماضيه، ولا ضعفه، سببًا لإهدار حرمته.

والعجيب أن السورة ستأتي بعد قليل إلى قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾

فكأنها تمهد لذلك المعنى الإنساني الكبير بتطهير النفس من داء الاحتقار.
لأن من اعتاد السخرية من أخيه القريب، لن يحسن التعارف مع المختلف البعيد.
ومن لم يرع حرمة المؤمن الذي بين يديه، لن يبلغ أفق الإنسانية الواسع.

خلاصة الفصل

تضع سورة الحجرات في هذه الآية سياجًا رفيعًا حول كرامة الإنسان.

تقول للمؤمنين:
لا تجعلوا الأخوة موضع عبث.
لا تحوّلوا الفروق بين الناس إلى مادة احتقار.
لا تسخروا ممن قد يكون عند الله خيرًا منكم.
لا تلمزوا، فإن طعن أخيكم طعن في أنفسكم.
لا تنابزوا بالألقاب، فإن الإنسان أوسع من وصمة، وأكرم من لقب جارح.
وتوبوا من ذلك؛ لأن من أصر عليه فقد ظلم.

وهكذا يتضح أن سورة الحجرات لا تبني المجتمع بالقوانين الكبرى وحدها، بل تحرسه من الكلمات الصغيرة التي تفتك بالكرامة في الخفاء.

فاللسان في هذه السورة ليس عضوًا عابرًا.
إنه ميزان قلب.
إما أن يكون أداة أخوة، وإما أن يكون معول هدم.
إما أن يحفظ كرامة الناس، وإما أن يجعل المجتمع كله ساحة خوف من الضحك الجارح واللمز الخفي والألقاب المسمومة.

ومن هنا نفهم أن السخرية ليست خفة ظل حين تمس الكرامة، بل خفة تقوى.
وأن اللمز ليس ذكاءً اجتماعيًا، بل عجز أخلاقي.
وأن اللقب الجارح ليس كلمة، بل قيد يوضع على روح إنسان.

فسورة الحجرات تريد للمؤمن أن يطهر نظرته قبل لسانه، وأن يرى في أخيه سرًا لا يعلمه كله، وكرامة لا يملك إهدارها، واحتمالًا مفتوحًا لأن يكون عند الله أرفع منه مقامًا.

الفصل السابع

اجتنبوا كثيرًا من الظن: تطهير الداخل قبل تطهير المجتمع

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾

بعد أن طهرت السورة ظاهر اللسان من السخرية واللمز والتنابز، انتقلت إلى ما هو أخفى: **الظن**.

وهذا انتقال من الجارحة إلى الجذر.
من الكلمة التي يسمعها الناس، إلى الخاطر الذي لا يسمعه إلا الله.
من العدوان الظاهر على الكرامة، إلى العدوان الباطن الذي يسبق كثيرًا من الكلام والأفعال.

فالإنسان لا يغتاب غالبًا إلا بعد أن يظن.
ولا يتجسس إلا بعد أن يسيء الظن.
ولا يلمز إلا بعد أن يبني في داخله صورة ناقصة عن أخيه.
كثير من آفات اللسان تبدأ من رواية داخلية يصنعها القلب، ثم يبحث لها اللسان عن مخرج.

ولهذا جاء القرآن إلى الداخل.
لم يكتف بأن يقول: لا تتكلموا بالسوء.
بل قال: فتشوا عن منبع السوء في ظنونكم.

اجتنبوا كثيرًا من الظن

قال تعالى: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**﴾

لم يقل: اتركوا كل الظن.
لأن من الظن ما يكون مبنيًا على قرائن معتبرة، ومنه ما يحتاجه الإنسان في الحذر والتدبير والقضاء والسياسة والمعاملات.
لكنه قال: **كثيرًا من الظن**.

وهذا التعبير يدل على أن منطقة الظنون واسعة وخطرة، وأن السلامة فيها تكون بالاجتناب، لا بمجرد الاحتياط اللفظي.

والاجتناب أبلغ من الترك.
فالترك قد يكون أن تضع الشيء أمامك ولا تأخذه.
أما الاجتناب فهو أن تجعل بينك وبينه جانبًا ومسافة.
كأن القرآن يقول: لا تقتربوا من هذه المنطقة بلا حاجة وبلا بينة؛ فإن القلب إذا أكثر من الظنون صار بيئة مريضة.

الظن السيئ ليس فكرة عابرة دائمًا.
قد يكون طريقة في رؤية الناس.
نمطًا داخليًا يجعل الإنسان يقرأ الوجوه والكلمات والمواقف على أسوأ احتمال.

لا يرى اعتذارًا إلا وراءه حيلة.
ولا صمتًا إلا وراءه كبر.
ولا خطأً إلا وراءه نية فاسدة.
ولا نجاحًا إلا وراءه خداع.
ولا قربًا إلا وراءه مصلحة.

وحين يستقر هذا المرض في النفس، يتحول العالم إلى مكان مظلم.
لا لأن الناس كلهم كذلك، بل لأن القلب صار يضع على الأشياء غشاءه الأسود.

إن بعض الظن إثم

قال تعالى: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾

هذه الجملة تجعل الخاطر موضع محاسبة إذا استرسل الإنسان معه بغير حق.
فليست كل منطقة الداخل مباحة للعبث.
هناك خواطر تعرض ولا يملك الإنسان بدايتها، لكن الإثم يبدأ حين يحتضنها، ويغذيها، ويبني عليها، ويعامل الناس بمقتضاها.

والقرآن دقيق حين قال: **بعض الظن**.
لم يفتح باب الوسوسة في كل خاطر، ولم يغلق باب المسؤولية عن الظنون الفاسدة.
إنه يضع ميزانًا:
ما جاء عابرًا فدافعه.

وما قام على بينة معتبرة فتعامل معه بقدرها.
وما كان اتهامًا بلا دليل، أو قراءة سيئة بلا قرينة، أو بناءً لموقف على احتمال مظلم، فهو من الإثم.

الإثم هنا ليس في كونه تصورًا داخليًا فقط، بل في كونه ظلمًا صامتًا.
فقد تظلم إنسانًا في قلبك قبل أن تظلمه بلسانك.
وقد تسلبه براءته في داخلك قبل أن تسلبه سمعته في المجلس.
وقد تحاكمه إلى خيالك قبل أن تسمع منه كلمة.

وهذا من أخطر الظلم؛ لأنه غير مرئي.
صاحبه قد يبدو صامتًا، لكنه في داخله يقيم محاكم كثيرة، يصدر فيها الأحكام بلا شهود ولا دفاع.

الظن حين يصنع عالمًا كاذبًا

الظن السيئ لا يقف عند حد الخاطر.
إنه يصنع عالمًا كاملًا داخل النفس.

يرى الإنسان موقفًا صغيرًا، فيبني عليه قصة.
يسمع كلمة ناقصة، فيكملها من جراحه.
يرى تأخرًا في الرد، فيجعله إهانة.
يرى نجاحًا لغيره، فيجعله مؤامرة.
يرى اختلافًا في الرأي، فيجعله عداوة.

ثم يبدأ يتعامل مع الناس لا كما هم، بل كما صنعهم في داخله.

وهنا تتحول الظنون إلى حجاب عن الواقع.
والقلب الذي يمتلئ بالظن لا يرى الناس، بل يرى تفسيراته عنهم.
لا يسمع كلماتهم، بل يسمع مخاوفه هو.
لا يقرأ أفعالهم، بل يقرأ ذاكرته المجروحة.

ولهذا كان تطهير الظن من أعظم أعمال التربية.
لأن المجتمع لا يفسده الكلام المعلن فقط، بل تفسده الصور الباطنة التي يحملها الناس بعضهم عن بعض.

لا تجسسوا: حين يريد الظن دليله

بعد النهي عن الظن جاء قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾

وهذا ترتيب نفسي دقيق.

فالظن إذا تمكن من القلب طلب الدليل.
لكن صاحبه لا يطلب الدليل ليعرف الحقيقة، بل ليؤكد اتهامه.
وهنا ينشأ التجسس: البحث في المستور، تتبع العورات، اقتحام الخفاء، التقاط الشواهد المبعثرة، لا بقصد العدل، بل بقصد إدانة الآخر.

التجسس هو حركة الظن حين يخرج من الداخل إلى الفعل.
كان سوء الظن محكمة سرية، فأراد التجسس أن يجمع لها ملفات.

والقرآن يقطع الطريق: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾

أي لا تجعلوا بيوت الناس، وأسرارهم، وضعفهم المستور، وأحاديثهم الخاصة، وماضيهم الذي ستره الله، مادة لفضولكم أو خصوماتكم أو رغبتكم في السيطرة.

إن للإنسان حرمة لا تنتهي عند جسده وماله.
له حرمة في سره.
له حق في أن يبقى ما ستره الله مستورًا.
له مساحة لا يجوز اقتحامها بلا حق.

والمجتمع الذي ينتشر فيه التجسس يفقد الطمأنينة.
يصير كل إنسان خائفًا من عين وراء الباب، وأذن خلف الجدار، وتأويل يلاحق خطواته.
ولا يقوم مجتمع سليم على هذا الرعب الخفي.

الفرق بين التبين والتجسس

قد يلتبس الأمر: أليست السورة قد أمرت قبل ذلك بالتبين؟ فكيف تنهى هنا عن التجسس؟

الفرق كبير.

التبين طلب للحقيقة عند وجود خبر له أثر، بوسائل عادلة، تحفظ الحقوق، وتمنع الظلم.
أما التجسس فهو اقتحام للمستور، غالبًا بدافع الشك والفضول والخصومة.

التبين يحرس العدل.
التجسس يغذي الريبة.

التبين يطلب قدر الحاجة.
التجسس لا يشبع.

التبين متعلق بما ظهر أثره في الناس.
التجسس متعلق بما ستره الله عن الناس.

التبين خلق مجتمع عاقل.
التجسس مرض مجتمع خائف.

ولهذا جمعت السورة بينهما في موضعين مختلفين:
أمرت بالتبين حتى لا نظلم بناءً على خبر.
ونهت عن التجسس حتى لا نعتدي بحثًا عن عورة.

وهذا من دقة الميزان القرآني.
لا سذاجة تقبل كل شيء.
ولا ريبة تفتش في كل شيء.

ولا يغتب بعضكم بعضًا

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾

بعد الظن والتجسس تأتي الغيبة.
وهذا أيضًا ترتيب دقيق.

يسيء الإنسان الظن.
ثم يبحث ويتجسس.
ثم إذا وجد أو توهم أنه وجد، جلس يتكلم.

الغيبة هي أن يتحول غياب الإنسان إلى فرصة لانتهاك عرضه.
هو غائب لا يدافع.
لا يصحح.
لا يشرح.
لا يرد.
فيصير الكلام عنه سهلًا، لأن كرامته ليست حاضرة بجسدها لتقاوم.

لكن القرآن يجعل غيابه سببًا لزيادة الحرمة لا لنقصانها.
لأنه أخوك، ولأنه غائب، ولأن الله حاضر.

الغيبة ليست مجرد نقل معلومة.
هي كشف ما يكره الإنسان أن يقال عنه، ولو كان فيه.
إنها انتهاك لحرمة الصورة الاجتماعية للإنسان.
كأنك تأخذ منه حقه في أن يُذكر بين الناس بقدر من الستر والإنصاف.

ليست المشكلة أن يقال الحق في موضع الحاجة: في شهادة، أو نصيحة معتبرة، أو دفع ظلم، أو تحذير من ضرر، بضوابطه.
المشكلة أن يتحول عرض الإنسان إلى مادة للمجلس، وأن يجد الناس لذة في ذكر نقصه وهو غائب.

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؟

ثم جاءت الصورة القرآنية التي لا تكاد النفس تحتملها: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾

هذه ليست مبالغة بلاغية.

إنها كشف لحقيقة الفعل في صورته المعنوية.

الغيبة أكل.

لأن المغتاب يتلذذ بنقص غيره.

ويأخذ من عرضه كما يأكل الآكل من الجسد.

وهي لحم أخيه.

لأن رابطة الأخوة تجعل هذا الفعل أقبح؛ ليس أكلًا للغريب، بل للأخ.

وهو ميت.

لأنه غائب عاجز عن الدفاع عن نفسه، كالميت لا يملك ردًا ولا دفعًا.

الصورة تقلب لذة المجلس إلى قرف أخلاقي.

كان المغتاب يجد متعة في الكلام، فجاء القرآن يكشف له حقيقة ما يفعل:

أنت تأكل لحم أخيك ميتًا.

﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾

أي كما تكرهون هذه الصورة لو رأيتموها، فاكرهوا معناها حين تفعلونه بألسنتكم.

وهذا من أعمق أساليب القرآن في التربية: أن ينقل الذنب من منطقة الاعتياد إلى منطقة الاشمئزاز.

لأن بعض الذنوب تألفها النفوس حتى لا تعود تراها.

فيأتي القرآن بصورة تهز الحس، لتعيد إلى القلب قدرته على النفور من القبيح.

الغيبة وأكل المعنى

الإنسان ليس جسدًا فقط.

له عرض.

له سمعة.

له حضور معنوي بين الناس.

والغيبة تأكل هذا الحضور.

قد يبقى جسده سالمًا، لكن صورته في نفوس الناس تتشوه.

قد لا يُضرب، لكن كرامته تُنهش.

قد لا يُسلب ماله، لكن يُسلب حقه في الإنصاف.

ومن هنا نفهم عمق الصورة القرآنية.

فالغيبة أكل للمعنى الإنساني.

أكل للستر.

أكل للثقة.

أكل للحق في الغياب الآمن.

والمجتمع الذي تكثر فيه الغيبة يصير مجتمعًا لا يأمن فيه أحد على صورته إذا غاب.

كل مجلس محتمل أن يكون مائدة.

وكل غائب محتمل أن يكون طعامًا.

وهذه حالة من الانحطاط الروحي، وإن بقي الناس يصلون ويتكلمون عن الأخلاق.

واتقوا الله إن الله تواب رحيم

قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾

بعد هذه النواهي الشديدة والصورة القاسية، يفتح القرآن باب التوبة.

لأن هذه الذنوب شائعة.

والناس يقعون فيها كثيرًا.

ولو أغلق الباب بعد ذكرها لهلكت نفوس كثيرة باليأس.

لكن الله تواب رحيم.

غير أن التوبة هنا ليست كلمة عامة.

توبة الظن أن تكف عن الاسترسال في الاتهام.

وتوبة التجسس أن تحترم ما ستره الله.

وتوبة الغيبة أن تحفظ لسانك، وأن ترد اعتبار من اغتبته قدر الاستطاعة، وأن تذكره بخير حيث ذكرته بسوء إن كان ذلك أصلح، وأن تستغفر له، وأن تكسر في نفسك لذة الكلام عن عيوب الناس.

والتقوى هنا هي الحارس.

لأن هذه الذنوب تقع غالبًا في الخفاء.

قد لا يراك من أسأت الظن به.

وقد لا يعلم من تجسست عليه.

وقد لا يسمعك من اغتبته.

لكن الله يعلم.

وسورة الحجرات منذ بدايتها تربيك على هذا المعنى:

إن الله سميع عليم.

تطهير الداخل شرط لطهارة المجتمع

هذه الآية تكشف أن المجتمع لا يطهر من الخارج فقط.

لا يكفي أن تمنع الناس من السب والشتم إذا بقيت قلوبهم مصانع للظنون.

ولا يكفي أن تضبط العلن إذا تحول السر إلى مستودع للريبة.

ولا يكفي أن تُحسّن لغة المجالس إذا ظل الغائبون طعامًا معنويًا فيها.

القرآن يبدأ من الداخل:

اجتنبوا كثيرًا من الظن.

ثم يمنع حركة الداخل الفاسد: لا تجسسوا.

ثم يمنع ثمرته اللسانية: لا يغتب بعضكم بعضًا.

وهذا تسلسل تربوي كامل:

طهارة التصور.

طهارة السلوك الخفي.

طهارة القول.

فإذا طهر الظن، قلّ التجسس.
وإذا قلّ التجسس، ضعفت مادة الغيبة.
وإذا ماتت الغيبة، تنفس المجتمع هواءً أنقى.

خلاصة الفصل

في هذه الآية تنتقل سورة الحجرات من حماية كرامة الإنسان في العلن إلى حماية حرمته في الخفاء.

تحرسه من ظنك، كما حرمته من سخريتك.
وتحرس سره من تجسسك، كما حرست اسمه من لقبك الجارح.
وتحرس غيبته من لسانك، كما حرست حضوره من لمزك.

إنها تريد مجتمعًا لا يكتفي بأن يتظاهر الناس فيه بالاحترام، بل أن يتطهر الجو الباطن بينهم:
لا محاكمات خفية بلا بينة.
لا اقتحام لما ستر الله.
لا موائد من لحوم الغائبين.
لا لذة في نقص الآخرين.

وهكذا يتضح أن سورة الحجرات ليست سورة آداب خارجية، بل سورة تطهير عميق للوجدان.
تريد للإنسان أن يكون نظيفًا حين يتكلم، ونظيفًا حين يصمت، ونظيفًا حين يسمع، ونظيفًا حين يظن.

فالكرامة الإنسانية لا تكتمل حمايتها إلا إذا حُميت من ثلاثة:
من احتقار اللسان، ومن سوء الظن، ومن عدوان الغيبة.

ومن عجيب بناء السورة أنها تجعل الأخوة حاضرة في كل ذلك:
من تسخر منه قد يكون خيرًا منك.
ومن تلمزه هو من نفسك.
ومن تغتابه هو أخوك.
حتى إذا همّ اللسان بالأذى، تذكّر القلب أن أمامه أخًا لا فريسة، وكرامة لا مادة، وإنسانًا ستره الله فلا تكن أنت من يهتك ستره.

الفصل الثامن

ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا: حرمة الغيب الإنساني

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾

في الآية السابقة دخلت سورة الحجرات إلى منطقة الظن؛ وهي أعمق مناطق الفساد الاجتماعي لأنها تقع في الداخل قبل أن تظهر في الخارج. ثم مضت خطوة أخرى إلى التجسس والغيبة، وهما صورتان من صور الاعتداء على الإنسان في غيابه: مرةً باقتحام ستره، ومرةً بأكل عرضه.

والتجسس والغيبة بينهما نسب خفي.
فالتجسس طلبٌ لما غاب عن العين.
والغيبة حديثٌ عمّن غاب عن المجلس.

كلاهما عدوان على الغيب الإنساني.
وكلاهما يقوم على أن الإنسان ليس حاضرًا ليدفع عن نفسه.
وكلاهما يستغل غياب القدرة عند الآخر: لا يعلم بك، أو لا يسمعك، أو لا يستطيع أن يرد عليك.

ولهذا كان النهي عنهما في سورة الحجرات نهيًا عن تحويل ضعف الغائب إلى فرصة.

فالإنسان المؤدب بالوحي لا يسطو على ما ستره الله، ولا يتغذى على عرض من لم يحضر.

التجسس: فضول حين يفقد التقوى

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾

التجسس ليس مجرد معرفة.
إنه معرفة عدوانية.
معرفة تدخل من غير بابها، وتبحث عمّا لم يؤذن لها فيه، وتقتحم حرمات الناس باسم الفضول أو الحذر أو الغيرة أو المصلحة المتوهمة.

ولذلك لم يقل القرآن: لا تعلموا.
ولا قال: لا تسألوا عما يعنيكم.
بل قال: **لا تجسسوا**.

فالفرق بين المعرفة المشروعة والتجسس أن الأولى تطلب الحق من طريقه، أما الثانية فتقتحم المستور من ثقب الريبة.
المعرفة المشروعة تحفظ الحدود.
أما التجسس فيبدأ حين ينسى الإنسان أن للناس أبوابًا، وأن للبيوت أسرارًا، وأن للقلوب مناطق لا تُفتح بالقسر، وأن الله الذي يعلم السرائر لم يأذن للخلق أن يتخذوا لأنفسهم مقام التفتيش في عباده.

إن بعض الناس لا يكتفي بما ظهر.
يريد ما وراء الصوت.
وما وراء الصمت.

وما وراء الرسالة.
وما وراء العلاقة.
يفتش في الوجوه، وفي الهواتف، وفي العثرات القديمة، وفي الكلام المبتور، وفي الأسرار التي سترها الله.
لا لأنه يريد عدلًا، بل لأنه لا يطيق أن يبقى في الإنسان موضع لا يملكه.

والتجسس في حقيقته شهوة سيطرة.
يريد صاحبه أن يملك من الناس ما لم يعطوه، وأن يعرف منهم ما اختاروا ستره، وأن يجعل خفاءهم مكشوفًا أمام عينه.

الستر أصل من أصول الرحمة

حين ينهى القرآن عن التجسس، فهو يقرر ضمنًا أن الستر نعمة.

فالستر ليس خداعًا دائمًا، ولا تسترًا على ظلم يجب كشفه.
بل هو حفظٌ لحق الإنسان في ألا تُلاحق عثراته، ولا تُفتش خلواته، ولا يُجعل باطن حياته مشاعًا لأعين الناس.

ما دام الأمر مستورًا لا يتعلق بحق عام، ولا يترتب عليه ضرر متعدٍّ، ولا يحتاج إلى شهادة أو قضاء أو نصيحة معتبرة؛ فالأصل أن يبقى في ستر الله.

إن الله تعالى يعلم عباده، ومع ذلك يستر كثيرًا.
فمن ضاق بستره على الناس فقد جهل بابًا واسعًا من رحمته.

والمؤمن لا يكون عينًا باردة تبحث عن عورات الخلق.
بل يكون قلبًا يعرف أن للناس ضعفًا، وأن الستر فرصة للتوبة، وأن كشف

المستور قد يحول الخطأ من عثرة قابلة للإصلاح إلى فضيحة تجرح صاحبها والمجتمع معه.

إن المجتمع الذي تهتك فيه الأستار لا يصير أطهر.
قد يصير أكثر خوفًا.
والخوف لا يصنع الفضيلة، بل يصنع النفاق والحيلة وتزيين الظاهر.

أما المجتمع الذي يحترم الستر، فإنه يمنح الإنسان مساحة ليعود إلى الله دون أن يطارده سوط الفضيحة.

حين يتحول الإنسان إلى ملف

التجسس يحول الإنسان من روح مكرمة إلى ملف مفتوح.
من شخص له كرامة وتعقيد وضعف وأسرار إلى مجموعة معلومات قابلة للتداول.

وهذا من أقسى ما يقع في المجتمعات حين تفسد.
لا يعود الإنسان يُعامل بما ظهر من استقامته ومعاملته، بل بما يمكن استخراجه من ماضيه، أو اصطياده من خصوصياته، أو تركيبه من شذرات حياته.

والقرآن يقاوم هذا الانحطاط من جذره.
يقول: لا تجسسوا.
أي لا تجعلوا الإنسان غنيمة معلوماتية.
لا تحوّلوه إلى مادة مراقبة.

لا تجعلوا ستره حقًا لكم.
لا تفتحوا على المجتمع بابًا إذا فُتح لم يأمن فيه أحد على نفسه.

إن الذي يتجسس على غيره يظن أنه يملك قوة المعرفة، لكنه في الحقيقة يهدم الأرض التي سيقف عليها هو أيضًا.
فإذا صار التجسس خلقًا عامًا، لم يبق أحد آمنًا.
ومن فتح باب اقتحام أسرار الناس، فلا يأمن أن يأتي يوم يقتحم فيه الناس ستره هو.

الغيبة: اغتيال الحضور في الغياب

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾

الغيبة أذى من نوع خاص.
إنها ليست مواجهةً، حتى يكون للآخر حق الدفاع.
وليست نصيحةً، حتى يكون المقصود الإصلاح.
وليست شهادةً، حتى يطلبها حق معتبر.

إنها كلام عن غائب بما يكره، في موضع لا يملك فيه أن يشرح أو يعتذر أو يصحح أو يدفع.

ولهذا كانت الغيبة جريمة في حق الغياب.
فالغياب في ميزان الأخلاق ليس فرصة للكلام، بل أمانة مضاعفة.
حين يغيب أخوك عن مجلسك، فقد ترك عرضه في ذمة تقواك.
فإن حفظته، كنت أمينًا.
وإن أكلته، خنت الغيب.

والناس يستهينون بالغيبة لأنها بلا دم ظاهر.
لكنها تسيل من كرامة الإنسان دون أن يراها الناس.
تمزق صورته في القلوب.
تضعف الثقة به.
تترك حول اسمه غبارًا.
وربما احتاج سنين طويلة ليزيل أثر دقائق قليلة من كلام قيل في مجلس مغلق.

إن الكلمة لا تموت حين تنتهي من الفم.
قد تستقر في ذاكرة سامع، ثم تتحول إلى موقف، ثم إلى نفور، ثم إلى حكم، ثم إلى سلسلة من الظلم لا يعرف صاحب الغيبة أين بلغت.

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ؟

قال تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ**﴾

السؤال هنا ليس سؤال معرفة، بل سؤال فطرة.
إنه يستدعي ما بقي في الإنسان من حياء داخلي.

لا يقول له مباشرة: الغيبة قبيحة فقط.
بل يسأله: أتحب هذا؟
أي انظر إلى نفسك.
فتش في فطرتك.
هل تقبل أن تفعل هذا لو رأيته في صورته الحسية؟

وهذا أسلوب قرآني عظيم؛ لأنه لا يخاطب العقل وحده، بل يوقظ الذوق الأخلاقي.

فالإنسان قد يعرف أن الشيء خطأ، لكنه لا يكرهه بما يكفي.

والقرآن يريد أن ينقل الغيبة من خانة الخطأ المألوف إلى خانة القبح الذي تشمئز منه النفس.

كأن الآية تقول: إن كنتم تكرهون الصورة، فاكرهوا الحقيقة.

فليست الغيبة أقل قبحًا لأنها لا تُرى.

بل خفاؤها يزيد خطرها؛ لأنها تتسلل إلى المجالس باسم الحديث العادي.

أن يأكل لحم أخيه ميتًا

قال تعالى: ﴿**أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾

الصورة هنا لا تترك للذنب ستارًا لغويًا يختبئ وراءه.

أكل: لأن في الغيبة لذة استهلاكية.

المغتاب لا يذكر النقص ببرود غالبًا، بل يجد متعة في كشفه، وفي إشعار المجلس أنه يعرف، وفي رؤية الآخرين يتفاعلون معه.

لحم: لأن العرض جزء من كيان الإنسان المعنوي.

ليس شيئًا خارجيًا عنه.

من أكل عرض أخيه فقد أكل من كرامته، لا من شيء منفصل عنه.

أخيه: لأن الإيمان جعل بينهما نسبًا روحيًا.

فالغيبة ليست أذى لغريب فحسب، بل خيانة لرابطة مقررة.

ميتًا: لأن الغائب لا يملك دفعًا.
هو في المجلس كالميت: لا يسمع، لا يجيب، لا يدافع، لا يستدرك.
وهذا يجعل الفعل أبشع؛ لأنه عدوان على من لا يستطيع الرد.

بهذه الكلمات الأربع حوّل القرآن الغيبة من حديث مألوف إلى مشهد ينفر منه الحس كله.

وليس المقصود تقبيح الصورة لذاتها فحسب، بل إعادة تشكيل ذوق المؤمن.
أن يصير سماع الغيبة ثقيلًا على قلبه، كما يكون منظر أكل الميت ثقيلًا على عينه.

فكرهتموه

قال تعالى: ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾

أي إن فطرتكم تأبى هذا المشهد.
فاجعلوا كراهتكم للغيبة مثل كراهتكم له.

وهنا يتحول المطلوب من مجرد ترك اللسان إلى تربية الذوق.
ليس كافيًا أن تمتنع عن الغيبة وأنت لا تزال تشتهيها.
الأعلى أن يكرهها قلبك، أن تنفر منها روحك، أن تشعر حين يفتح بابها أن شيئًا من رائحة الموت دخل المجلس.

وهذه منزلة رفيعة في التربية.
فالإنسان يبدأ أحيانًا بترك الذنب خوفًا.
ثم يترقى حتى يكرهه طبعًا وإيمانًا.

وسورة الحجرات تريد هذا الترقي: أن تصير أعراض الناس محرمة في قلبك قبل أن تكون محرمة على لسانك.

المجالس بوصفها اختبارًا للتقوى

تظهر حقيقة الإنسان في مجالسه.

في الصلاة قد يكون ظاهر الناس واحدًا.
لكن في المجلس تنكشف التقوى الدقيقة:
هل تحفظ غائبًا؟
هل تغير مجرى الكلام حين يبدأ النيل من أحد؟
هل تفرح بسقوط الناس في الرواية؟
هل تضيف كلمة تزيد الجرح؟
هل تصمت صمت الراضي؟
هل تلبس الغيبة ثوب التحليل والنصيحة؟

إن كثيرًا من الغيبة لا تأتي عارية.
تأتي بأثواب محترمة:
نحن لا نريد إلا البيان.
هذا من باب التحذير.
هذا معروف عند الناس.
أنا أقول الحقيقة فقط.
لا أريد أن أظلمه، لكن...

وقد يكون بعض الكلام جائزًا في موضعه إذا قصد به دفع ضرر أو بيان حق.

لكن النفس بارعة في التمويه.

تدس شهوة الكلام تحت عنوان النصيحة، وتدس لذة الإسقاط تحت عنوان التحليل.

لهذا يحتاج اللسان في المجالس إلى تقوى يقظة.

تقوى لا تكتفي بظاهر العبارة، بل تسأل عن النية والحاجة والقدر والأثر.

متى لا يكون الكلام غيبة مذمومة؟

حتى لا يتحول الفهم إلى اضطراب، لا بد من ضبط المعنى.

ليس كل ذكر للغائب غيبة محرمة بإطلاق.

قد يذكر الإنسان غيره في مواضع معتبرة:

لرفع مظلمة.

أو طلب فتوى.

أو تحذير من ضرر متحقق.

أو شهادة يحتاجها حق.

أو تعريف لا يقصد به تنقص.

أو نقد علمي لفكرة أو موقف له أثر عام، بضوابط العدل والإنصاف.

لكن الفرق بين هذه المواضع وبين الغيبة المذمومة أن الكلام المشروع يكون بقدر الحاجة، ولأجل مقصد صحيح، وبلا تشفٍّ، ولا توسع، ولا تلذذ بذكر العيوب.

أما الغيبة المحرمة فهي أن يصبح نقص الغائب مادة للمجلس، لا ضرورة يقدر قدرها.

والميزان هنا دقيق؛ لأن الإنسان قد يخدع نفسه.

لذلك كانت التقوى خاتمة الآية.

واتقوا الله

قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾

بعد النهي عن التجسس والغيبة، تأتي التقوى لأنها الضابط الوحيد حين لا يراك الناس.

فمنع التجسس لا تحرسه القوانين دائمًا.

ومن منع الغيبة لا يحرسه الغائب.

إنما يحرسه علمك بأن الله يسمع ويرى.

التقوى تقول لك:

توقف، وإن كان الباب مفتوحًا.

اسكت، وإن كان المجلس راغبًا.

استر، وإن كان الكشف ممتعًا.

انصف، وإن كان الغائب خصمك.

لا تأكل، وإن كان الطعام المعنوي حاضرًا ومزينًا بأيدي الناس.

إن التقوى هنا ليست معنى عامًا، بل قوة كبح في موضع خفي.

إن الله تواب رحيم

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾

والختم بالتوبة والرحمة بعد تصوير الغيبة بهذه الصورة القاسية يدل على أن القرآن لا يريد دفع الإنسان إلى اليأس، بل إلى الرجوع.

كثير من الناس وقعوا في الغيبة.
وكثير من المجالس تلوثت بها.
وكثير من الألسنة أكلت وهي لا تشعر أنها تأكل.
لكن الباب مفتوح: **تواب رحيم**.

والتوبة من هذه الآفات تحتاج إلى صدق خاص.

أن يعترف الإنسان بأن لسانه لم يكن بريئًا.
وأن يستغفر الله.
وأن يكفّ عن العودة.
وأن يحفظ من اغتابه بما يستطيع.
وأن يطهر مجلسه من هذا الطعام الخبيث.
وأن يعوّد نفسه إذا ذُكر غائب بسوء أن يقول: لعل له عذرًا، أو دعونا مما لا ينفع، أو اذكروا خيره، أو كفوا عن عرضه.

ليست التوبة شعورًا داخليًا فقط.
إنها تغيير اتجاه اللسان.

حرمة الغيب الإنساني

إذا جمعنا التجسس والغيبة تحت معنى واحد، وجدنا أن القرآن يؤسس هنا حرمة كبرى: **حرمة الغيب الإنساني**.

للإنسان غيبان:
غيب مستور في حياته الخاصة، فلا تتجسس عليه.
وغيب حضوري حين لا يكون في المجلس، فلا تغتبه.

في الأولى: لا تقتحم ما ستره.
وفي الثانية: لا تنتهك عرضه وهو غائب.

وهذا من أرقى ما تبنيه السورة.
إنها لا تحمي الإنسان حين يواجهك فقط، بل تحميه حين لا يراك ولا يسمعك.
والأخلاق الحقيقية هي التي تعمل في الغياب.
أما من لا يتأدب إلا بحضور الناس، فأدبه مراقبة لا تقوى.

إن سورة الحجرات تريد إنسانًا مأمونًا في السر.
إذا غاب عنه أخوه، حفظه.
وإذا ستر الله شيئًا، تركه.
وإذا سمع عيبًا، لم يفرح.
وإذا قدر على الكلام، اختار الورع.

أثر الغيبة في بنية المجتمع

الغيبة لا تؤذي الفرد فقط، بل تغير طبيعة المجتمع كله.

حين تنتشر الغيبة، تضمر الثقة.
يصير الناس حذرين في كل كلمة.
يتعاملون بوجوه كثيرة.
يخفون عيوبهم لا إصلاحًا لها، بل خوفًا من التداول.
وتصير المجالس مناطق غير آمنة.
كل واحد يبتسم وهو حاضر، ويخاف ما سيقال عنه إذا خرج.

وبهذا تتحول الأخوة إلى تمثيل اجتماعي.
ظاهر من المجاملات، وباطن من المخاوف.

أما المجتمع الذي تُحفظ فيه الغيبة، فهو مجتمع أهدأ نفسًا.
يعرف الإنسان أن غيابه لا يعني سقوط حرمته.
وأن خطأه لا يصير مادة مباحة.
وأن ستر الله عليه لن يهتكه فضول الناس.

والفرق بين المجتمعين فرق في الهواء الأخلاقي نفسه.
مجتمع تتنفس فيه بثقة، ومجتمع تتنفس فيه بحذر.

خلاصة الفصل

النهي عن التجسس والغيبة في سورة الحجرات ليس تفصيلًا أخلاقيًا صغيرًا.

إنه بناء لحق عظيم من حقوق الإنسان في الإسلام: أن يكون له ستر، وأن يكون له عرض، وأن تبقى كرامته حاضرة ولو غاب جسده.

فلا يجوز أن يتحول ستره إلى صيد.

ولا غيابه إلى مائدة.

ولا ضعفه عن الدفاع إلى فرصة.

ولا أخوته إلى لفظ يقال ثم تنقضه المجالس.

لقد أرادت السورة للمجتمع المؤمن أن يكون مجتمعًا آمنًا في الظاهر والباطن:

آمنًا من السخرية في الحضور.

آمنًا من اللمز في الكلام.

آمنًا من الظن في الداخل.

آمنًا من التجسس في السر.

آمنًا من الغيبة في الغياب.

وهكذا تكتمل منظومة الحماية:

كرامة الإنسان لا تُمس وهو حاضر.

وستره لا يُقتحم وهو غائب.

وعرضه لا يؤكل في المجالس.

وحقيقته لا تُختزل في عيب، ولا في شائعة، ولا في لقب، ولا في ظن.

إن سورة الحجرات لا تريد إنسانًا مهذب العبارة فقط، بل إنسانًا أمينًا على غياب الآخرين.

وهذه منزلة عالية؛ لأن الغائب لا يحرس نفسه، وإنما تحرسه تقواك.

الفصل التاسع

وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا: من العصبية إلى إنسانية التعارف

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾

بعد أن خاطبت السورة المؤمنين مرارًا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾

تفتح هنا خطابًا أوسع: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾

وهذه النقلة ليست عرضية.
إنها انتقال من بناء الجماعة المؤمنة إلى تقرير أصل إنساني عام.
فالذي تعلم أدب الوحي، وأدب الخبر، وأدب الإصلاح، وأدب الأخوة، وأدب اللسان، وأدب الظن، وأدب الغيب؛ ينبغي أن يترقى إلى أدب أوسع: أدبه مع الإنسان من حيث هو إنسان.

كأن السورة بعد أن طهرت الداخل الإيماني من أمراضه، أخرجت المؤمن إلى رحابة البشرية كلها، حتى لا يظن أن أخلاقه محصورة داخل دائرته الخاصة.
فالإنسان الذي لا يسخر من أخيه المؤمن، ينبغي ألا يحتقر إنسانًا لاختلاف نسبه أو لونه أو شعبه أو قبيلته.
والذي عرف أن التفاضل داخل الجماعة بالتقوى، ينبغي أن يعرف أن التفاضل بين البشر ليس بالدم، ولا بالأرض، ولا باللسان، ولا باللون.

هنا تبلغ السورة أفقها الحضاري الكبير.

يا أيها الناس

النداء بـ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ يخرج النفس من ضيق الجماعة إلى سعة الخلق.

فالقرآن لا يخاطب قبيلة بعينها، ولا طبقة بعينها، ولا أمة بعينها.
إنه يخاطب الإنسان في أصله الأول، قبل أن تتكاثر عليه الأسماء والرايات والحدود والهويات.

يا أيها الناس:
أي يا من يجمعكم أصل الخلق، وإن فرقتكم الألسنة.
يا من يجمعكم الافتقار إلى الله، وإن اختلفت مراتبكم في الدنيا.
يا من جئتم من بداية واحدة، وتذهبون إلى مصير واحد، فلا تجعلوا ما بين البداية والنهاية سببًا للكبر والاحتقار.

هذا النداء يهدم غرور الخصوصيات حين تتحول إلى أوثان.
فالإنسان يحتاج إلى انتماء، لكن الانتماء إذا انفصل عن التقوى صار عصبية.
ويحتاج إلى اسم يعرف به، لكن الاسم إذا صار منصة احتقار للآخرين تحول إلى جاهلية.

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾

هذه الجملة تعيد البشرية إلى أصلها البسيط.

مهما تعددت الشعوب، ومهما تعاظمت الدول، ومهما تفاخر الناس بالأنساب، فإن أصلهم واحد: ذكر وأنثى.
لا يخرج أحد من هذا القانون.
لا الملوك، ولا الفقراء، ولا الأقوياء، ولا الضعفاء، ولا أصحاب الألوان المختلفة، ولا أصحاب اللغات المتباينة.

إن القرآن يردّ الإنسان إلى بداية لا يستطيع أن يتكبر فيها.
فمن تذكر أصل الخلق خفّ غروره.
ومن عرف أن نسبه الأعلى هو الإنسانية المشتركة، استحيا أن يجعل نسبه الأدنى سببًا للاحتقار.

ليس في الآية إلغاء للأنساب، لكنها تمنعها من التكبر.
فالإنسان يعرف أباه وجده وقبيلته وشعبه، لكن وراء ذلك كله حقيقة أقدم: أنه مخلوق من ذكر وأنثى، وأن غيره كذلك.
فالأصل الذي يجمع أعمق من الفرع الذي يميز.

وجعلناكم شعوبًا وقبائل

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

الاختلاف هنا داخل في الجعل الإلهي.
ليس خطأً في الوجود.
ليس عيبًا ينبغي محوه.
ليس لعنة على البشر.
بل هو جزء من حكمة الخلق.

الشعوب والقبائل تعبير عن تنوع الاجتماع الإنساني.
للناس لغات، وأوطان، وطبائع، وأنساب، وتقاليد، وطرائق عيش.
والقرآن لا يطلب إلغاء هذا التنوع، بل يطلب تهذيبه.

فالمشكلة ليست أن تكون لك قبيلة أو شعب.
المشكلة أن تجعل قبيلتك معيار الحق.
وأن تجعل شعبك مركز العالم.
وأن ترى الآخرين من خلال ارتفاعك الوهمي عليهم.
وأن تحوّل النسب من وسيلة تعريف إلى سلاح احتقار.

إن الجعل الإلهي للتنوع يمنعنا من احتقار الاختلاف من حيث هو اختلاف.
فما جعله الله للتعارف لا يجوز أن نحوله إلى تناكر.
وما جعله الله علامة معرفة لا يجوز أن نحوله إلى راية عصبية.

لتعارفوا

هذه هي الغاية: ﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾

لم يقل: لتتفاخروا.
ولا: لتتحاربوا.
ولا: ليتعالى بعضكم على بعض.
ولا: ليذوب بعضكم في بعض.
بل قال: **لتعارفوا**.

والتعارف أرقى من مجرد المعرفة.
إنه معرفة متبادلة، فيها اقتراب، وانكشاف، واحترام، وإدراك لما عند الآخر من خصوصية.
هو أن يكون اختلاف الناس بابًا إلى الفهم، لا حاجزًا عن الرحمة.

التعارف لا يعني إلغاء الفروق، بل يعني أن تصير الفروق مادة إدراك لا مادة عداوة.
أن أعرفك في خصوصيتك دون أن أحتقرك.
وأن تعرفني في خصوصيتي دون أن تلغيني.
أن يكون اختلافنا سببًا لزيادة المعنى، لا سببًا لإنقاص الكرامة.

وهنا تظهر عظمة القرآن الحضارية.
إنه لا يكتفي بمقاومة العصبية، بل يقدم بديلًا إيجابيًا: التعارف.
فالبشر لا يكفي أن يكفّوا عن احتقار بعضهم، بل ينبغي أن يتجهوا إلى معرفة بعضهم.

الترك وحده لا يبني عمرانًا.
أما التعارف فيبني جسورًا.

من القبيلة إلى القيمة

القبيلة في أصلها ليست شرًا.
هي نظام انتساب وتعارف وتكافل.
لكنها تصير شرًا حين تتحول من رابطة اجتماعية إلى معيار أخلاقي.
حين يصبح ابن القبيلة مصيبًا ولو ظلم، والغريب مخطئًا ولو صدق.
حين يصير الدم أقوى من الحق.
وحين يصير الانتماء حصانة من النقد، أو رخصة في العدوان.

وسورة الحجرات جاءت بعد آيات الأخوة والعدل لتمنع هذا التحول.
فالذي قال: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا**﴾

هو الذي قال: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾

أي إن الجماعة والنسب والقبيلة لا ينبغي أن تهدم القسط.
والانتماء لا ينبغي أن يعلو على التقوى.
والتعريف لا ينبغي أن ينقلب إلى تزكية مطلقة.

إن الإنسان في ميزان الوحي لا يكرم لأنه من قبيلة كذا، ولا يسقط لأنه من شعب كذا.
يكرم بالتقوى.
ويسقط بالظلم ولو حمل أعلى الأنساب.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

هذه الجملة هي انقلاب كامل على مقاييس الجاهلية.

الجاهلية تسأل: من أبوك؟
والقرآن يسأل: ما تقواك؟

الجاهلية تسأل: ما لونك؟
والقرآن يسأل: ما مقامك عند الله؟

الجاهلية تسأل: ما قبيلتك؟
والقرآن يسأل: ما أثر الإيمان في قلبك وعملك؟

الجاهلية تسأل: كم تملك؟
والقرآن يسأل: كم تخشى الله فيما تملك؟

هنا تُسحب الكرامة العليا من يد الناس.
لم تعد الأنساب تمنحها، ولا الأموال تشتريها، ولا القوة تفرضها، ولا الشهرة تصنعها.
صارت عند الله، وبمعيار الله: ﴿**أَتْقَاكُمْ**﴾

والتقوى ليست مظهرًا اجتماعيًا.
إنها علم الله في القلوب، وأثر ذلك العلم في السلوك.
هي أن يجعل الإنسان بينه وبين سخط الله وقاية.
أن يخاف الله في موضع القدرة.

أن يعدل حين يقدر على الظلم.
أن يصون لسانه حين يستطيع الجرح.
أن يتثبت حين تشتعل الشائعة.
أن يتواضع حين تمنحه الدنيا سببًا للكبر.

وبهذا تتصل الآية بكل ما سبقها.
فالأتقى هو الذي لا يتقدم بين يدي الله ورسوله.
والأتقى هو الذي يغض صوته عند رسول الله.
والأتقى هو الذي يتبين.
والأتقى هو الذي يصلح بالعدل.
والأتقى هو الذي لا يسخر ولا يلمز ولا يتنابز.
والأتقى هو الذي يجتنب الظن، ولا يتجسس، ولا يغتاب.
ثم هو الذي لا يجعل شعبه أو قبيلته سببًا للتعالي.

كأن السورة كلها شرح عملي لمعنى التقوى في هذه الآية.

عند الله: تحرير الكرامة من محاكم الناس

قال تعالى: ﴿**عِندَ اللَّهِ**﴾

وهذه الكلمة كافية لهدم كثير من الأوهام.

قد تكون كبيرًا عند الناس، صغيرًا عند الله.
وقد تكون منسيًا عند الناس، كريمًا عند الله.
قد يرفعك نسبك في المجالس، ولا يرفعك عند الله شيء.
وقد لا يعرف الناس اسمك، لكن التقوى جعلت لك وزنًا في السماء.

هذا يحرر الإنسان من عبودية المقاييس الاجتماعية.

فلا يذل لأنه لا يملك نسبًا مشهورًا.

ولا يغتر لأنه يملك اسمًا كبيرًا.

ولا يحكم على الناس بما يلمع في ظاهرهم.

ولا يسمح للقبيلة أو اللون أو المال أن تخدعه عن السؤال الأكبر: من أكرم عند الله؟

ومادام المعيار عند الله، فلا يملك أحد أن يحتكر الكرامة لنفسه.

ولا أن ينزعها عن غيره.

الناس قد يظنون.

والقبائل قد تتفاخر.

والدول قد تستعلي.

لكن الله وحده يعلم من الأتقى.

إن الله عليم خبير

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾

ناسب هذا الختام معنى التقوى.

لأن التقوى ليست كلها ظاهرة.

منها ما يستقر في القلب، ومنها ما يظهر في العمل، ومنها ما لا يعلمه الناس.

الله **عليم** بالظاهر والباطن.

خبير بدقائق النفوس، وخفايا الدوافع، وحقائق الأعمال.

قد يتصنع الإنسان التقوى في أعين الناس، والله خبير.
وقد يحتقر الناس إنسانًا لضعف ظاهره، والله عليم بما في قلبه.
وقد يظن قوم أنهم أكرم لأن لهم نسبًا أو قوة، والله يعلم أن الكرامة حيث التقوى.

فخاتمة الآية تردّ الحكم النهائي إلى الله.
لا إلى الناس.
ولا إلى التاريخ.
ولا إلى النسب.
ولا إلى الغلبة.
ولا إلى الصورة الظاهرة.

التعارف لا يعني تمييع الحق

ينبغي أن ننتبه هنا إلى أن التعارف القرآني لا يعني ذوبان الفوارق العقدية والأخلاقية، ولا إلغاء الحق والباطل، ولا مساواة القيم كلها.
فالقرآن الذي قال: ﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾

هو الذي جعل التقوى معيار الكرامة.
فالتعارف إنساني، لكن التفاضل الأخلاقي بالتقوى.

ومعنى ذلك أن الإسلام يجمع بين أمرين:
الاعتراف بوحدة الأصل الإنساني وحرمة الكرامة العامة.
ثم تقرير أن أعلى الكرامة عند الله بالتقوى.

فلا يجوز أن يُحتقر الإنسان لأصله أو لونه أو قبيلته.
ولا يجوز كذلك أن تُلغى حقيقة التقوى باسم الإنسانية العامة.

الإنسانية في القرآن ليست بديلًا عن التقوى، بل مجال تظهر فيه التقوى.
فأتقى الناس هو أحسنهم قيامًا بحق الله وحق خلقه.

التعارف بوصفه مشروعًا حضاريًا

إذا انتقلنا إلى أفق أوسع، وجدنا أن كلمة ﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾ تصلح أساسًا لمشروع حضاري كامل.

فالعالم لا يفسده الاختلاف وحده.
يفسده الجهل المتبادل، والصور النمطية، والكبرياء الجماعية، والتاريخ المسموم، وتحويل الخصوصيات إلى أسلحة.

والتعارف يعني أن يخرج الإنسان من سجنه الضيق ليرى العالم أوسع من صورته عنه.
أن يعرف الأمم من مصادرها لا من أعدائها فقط.
وأن يميز بين النقد والاحتقار.
وبين الاعتزاز والاستعلاء.
وبين الهوية والعصبية.
وبين الخصوصية والانغلاق.

إن التعارف لا يكون حقيقيًا إلا إذا دخلته التقوى.
لأن المعرفة بلا تقوى قد تتحول إلى استعمار.
يعرف القوي الضعيف ليسيطر عليه.

ويدرسه لا ليفهمه، بل ليستغله.
أما التعارف القرآني فهو معرفة محكومة بالكرامة، قائمة على أن الخلق لله، وأن التفاضل عنده بالتقوى.

من آفات العصر: الهويات الجارحة

في كل عصر تظهر صور من العصبية.
قد تكون عصبية قبيلة.
أو قومية.
أو لون.
أو طبقة.
أو حزب.
أو منطقة.
أو لغة.
أو حتى عصبية ثقافية تجعل صاحب المعرفة يحتقر من دونه.

وسورة الحجرات تواجه أصل المرض لا صورته فقط.
كلما جعل الإنسان ما ليس معيارًا عند الله معيارًا للتفاضل المطلق، وقع في جاهلية جديدة.

قد تتغير الأسماء، لكن الجاهلية واحدة:
أن ترى نفسك أعلى من غيرك بما لم يجعله الله معيار الكرامة.

ولذلك فإن هذه الآية لا تزال تحاكم العالم كله.
تحاكم المجتمعات التي تفاخر بألوانها.

والقبائل التي تفاخر بأنسابها.
والطبقات التي تفاخر بأموالها.
والنخب التي تفاخر بمعارفها.
والجماعات التي تحول انتماءها إلى رخصة لاحتقار الآخرين.

كل هؤلاء تقف الآية أمامهم وتقول: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

خلاصة الفصل

في هذه الآية تخرج سورة الحجرات من داخل الجماعة المؤمنة إلى رحابة الإنسان كله، لتقرر ثلاث حقائق كبرى:

الأولى: وحدة الأصل البشري. ﴿**خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾

الثانية: مشروعية التنوع بوصفه جعلًا إلهيًا.
﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**﴾

الثالثة: أن الغاية من هذا التنوع هي التعارف، لا التفاخر ولا التناكر.
﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾

ثم تضع الميزان الحاسم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

وبهذا تهدم السورة أوثان التفاضل الجاهلي كلها.
لا الدم.
لا اللون.
لا القبيلة.
لا الشعب.

لا المال.

لا القوة.

لا الشهرة.

لا الصورة الاجتماعية.

التقوى وحدها هي معيار الكرامة العليا عند الله.

وهكذا يتبين أن سورة الحجرات ليست سورة أخلاق فردية فقط، بل سورة بناء حضاري.

تبدأ من أدب الإنسان مع الوحي، وتنتهي إلى أدبه مع البشرية.

تطهر صوته، وخبره، وخصومته، ولسانه، وظنه، ثم تطهر نظرته إلى اختلاف الناس.

فالمؤمن الذي ربته هذه السورة لا يرى القبيلة منصة استعلاء، بل علامة تعارف.

ولا يرى اختلاف الشعوب سببًا للاحتقار، بل مجالًا لاكتشاف حكمة الله في التنوع.

ولا يطلب الكرامة من ألسنة الناس، بل من التقوى التي يعلمها الله.

ومن هنا يكون التعارف في القرآن ليس مجاملة إنسانية عابرة، بل ثمرة توحيدية:

من عرف أن الله خلق الناس، استحيا أن يحتقر خلق الله بما لم يجعله الله معيارًا للفضل.

الفصل العاشر

إن أكرمكم عند الله أتقاكم: سقوط مقاييس الجاهلية

قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾

تبلغ سورة الحجرات في هذه الجملة ذروةً من ذرى التصحيح الإنساني.
فبعد أن قررت وحدة الأصل: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾

وبعد أن قررت حكمة التنوع: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾

جاءت لتضع الميزان الأخير، الميزان الذي يسقط عنده ضجيج الأنساب، وصخب القبائل، وزينة المال، وغرور القوة، وادعاءات الطبقات، ومظاهر التفوق المصطنع: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

هذه ليست جملة في تهذيب الشعور فحسب.
إنها ثورة قرآنية على كل معيار زائف اتخذه الإنسان سببًا للعلو على الإنسان.

فالناس منذ القديم يصنعون لأنفسهم سلالم وهمية:
هذا أعلى لأنه من نسب كذا.
وهذا أرفع لأنه من قبيلة كذا.
وهذا أحق لأنه يملك.
وهذا أولى لأنه يغلب.
وهذا أجدر لأنه يتكلم بلسان السادة.

وهذا أدنى لأنه فقير، أو غريب، أو ضعيف، أو مجهول، أو لا يملك حوله عصبة تحرس اسمه.

ثم تأتي الآية، فتسحب بساط الكرامة العليا من تحت هذه المقاييس كلها، وتضعه في موضع لا تملكه يد بشر:

عند الله.

ليست الكرامة العليا عند القبيلة.
ولا عند الجمهور.
ولا عند السلطة.
ولا عند المال.
ولا عند الشهرة.
ولا عند الذين يوزعون الأقدار على الناس بجهلهم وحسدهم ومصالحهم.

إنها عند الله.
ومعيارها التقوى.

أكرمكم: معنى الكرامة في ضوء الوحي

قال تعالى: ﴿**أَكْرَمَكُمْ**﴾

والكرامة هنا ليست مجرد منزلة اجتماعية.
ليست مقعدًا في صدر المجلس.
ولا شهرةً تسبق الاسم.

ولا نسبًا تتداوله الألسنة.
ولا جاهًا ينحني له الناس خوفًا أو طمعًا.

الكرامة في ميزان الوحي منزلة عند الله، ثم أثر لهذه المنزلة في طهارة الإنسان وعدله ورحمته وخشيته.
قد يكون الإنسان مهيبًا في الأرض، لكنه خفيف عند الله.
وقد يكون خامل الذكر بين الناس، لكنه كريم في ميزان السماء.

وهذا المعنى يحرر الإنسان من عبودية النظر البشري.
فليس عليه أن يطارد اعتراف الناس ليكون كريمًا.
ولا أن يستجدي الأنساب لتمنحه قدرًا.
ولا أن يلبس وجوهًا مستعارة حتى يشعر أنه موجود.

يكفيه أن يعرف أن الكرامة الحقيقية لا تُمنح في المجالس، ولا تُختم بأختام البشر، بل تُعرف عند الله.

وهذه المعرفة تُسقط عن القلب كثيرًا من التعب.
فالإنسان إذا جعل كرامته في عيون الناس، عاش قلقًا، متغيرًا، مرتهنًا، تتسع نفسه بمدحهم، وتضيق بذمهم، يرتفع إذا رفعوه، وينكسر إذا تجاهلوه.
أما إذا ردّ الكرامة إلى الله، استراح من عبودية السوق الاجتماعي، وصار يسأل سؤالًا واحدًا: هل أنا أقرب إلى التقوى أم أبعد؟

عند الله: المحكمة التي لا تخدعها الزينة

قوله تعالى: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾

هو موضع الحسم في الآية.

لأن الناس يحكمون بالظاهر، والله يعلم السرائر.
والناس قد تنخدع بالصورة، والله يعلم الحقيقة.
والناس قد ترفع من لا يستحق، وتضع من لا يستحق، والله لا يظلم مثقال ذرة.

كم من إنسان صنع الناس له هالة، وليس في قلبه من التقوى إلا القليل.
وكم من إنسان أهمله الناس، ولو علموا مقامه عند الله لاستحيوا من غفلتهم عنه.
وكم من رجل لا يُذكر اسمه في المجالس، لكنه إذا خلا بالله كان أصدق من جماعات تتكاثر بالكلام.
وكم من امرأة لا يعرف الناس تضحياتها، لكنها عند الله في مقام كريم بما حملت وصبرت وخافت واتقت.

عند الله تعني أن هناك ميزانًا لا تفسده الدعاية.
ولا تحرفه العصبية.
ولا تشتريه الأموال.
ولا تضلله الألقاب.
ولا تخدعه فصاحة المتكلمين.

وهذا الميزان هو عزاء المظلومين، ورادع المتكبرين.
عزاء لمن حرمهم الناس حقهم في الاعتراف.
ورادع لمن ظنوا أن اعتراف الناس يغنيهم عن الله.

أتقاكم: التقوى معيارًا للفضل

قال تعالى: ﴿**أَتْقَاكُمْ**﴾

لم يقل: أعلمكم، مع أن العلم شريف.
ولا قال: أغناكم، مع أن المال قد يكون نعمة.
ولا قال: أقواكم، مع أن القوة إذا صلحت نفعت.
ولا قال: أشرفكم نسبًا، مع أن النسب يعرف ولا ينكر.
بل قال: **أتقاكم**.

لأن التقوى هي التي تهذب كل نعمة.
العلم بلا تقوى قد يصير كبرًا.
والمال بلا تقوى قد يصير طغيانًا.
والقوة بلا تقوى قد تصير بطشًا.
والنسب بلا تقوى قد يصير جاهلية.
والفصاحة بلا تقوى قد تصير تلاعبًا بالحق.
والدين الظاهر بلا تقوى قد يصير قشرة تخفي نفسًا لم تتأدب.

التقوى هي الضابط الداخلي الذي يجعل الإنسان عبدًا لله في موضع القدرة والخفاء والاختيار.
هي أن تخاف الله حين تستطيع أن تظلم.

وأن تصدق حين تستطيع أن تراوغ.
وأن تكف لسانك حين تستطيع أن تجرح.
وأن تعدل حين يميل قلبك إلى طرفك.
وأن تتثبت حين يرضي الخبر هواك.
وأن تستحي من الله في السر كما تستحي من الناس في العلن.

ولهذا صارت التقوى معيار الكرامة؛ لأنها ليست زينة خارجية، بل حقيقة جامعة.
إنها تمسّ القلب والعقل واللسان واليد والعلاقة بالناس.

سورة الحجرات شرح عملي للتقوى

إذا تأملنا بناء السورة، وجدنا أن قوله تعالى: ﴿**أَتْقَاكُمْ**﴾

ليس خاتمة منفصلة، بل خلاصة لما سبق.

فالتقوى في السورة ليست كلمة معلقة في التجريد.
إنها تظهر في صور عملية:

أن لا تتقدم بين يدي الله ورسوله.
هذه تقوى المرجعية.

وأن لا ترفع صوتك فوق صوت النبي.
هذه تقوى الأدب.

وأن تتبين الخبر قبل أن تبني عليه موقفًا.
هذه تقوى المعرفة.

وأن تصلح بين المؤمنين بالعدل والقسط.
هذه تقوى الاجتماع.

وأن لا تسخر ولا تلمز ولا تتنابز.
هذه تقوى اللسان والكرامة.

وأن تجتنب كثيرًا من الظن.
هذه تقوى الداخل.

وأن لا تتجسس.
هذه تقوى الستر.

وأن لا تغتاب.
هذه تقوى الغياب.

وأن ترى الشعوب والقبائل بابًا للتعارف لا للتفاخر.
هذه تقوى النظر إلى الإنسان.

إذن فالتقوى في سورة الحجرات ليست حالة وجدانية غامضة، بل نظام كامل في التعامل مع الله ورسوله والناس والحقيقة والنفس.

ومن هنا تتضح عظمة الخاتمة:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

أي إن أكرمكم هو أكثر من تهذب بهذا الميزان في مواضع الحياة كلها.

سقوط النسب حين ينفصل عن التقوى

لا ينكر الإسلام النسب.
بل يجعله وسيلة معرفة وصلة رحم ومسؤولية اجتماعية.
لكن الإسلام ينزع عنه حق التأليه الأخلاقي.

النسب حين يكون تعريفًا فهو نعمة.
وحين يكون تكافلًا فهو مروءة.
وحين يكون حفظًا للرحم فهو عبادة.
أما حين يتحول إلى استعلاء، فقد دخل في الجاهلية.

ما قيمة نسب رفيع مع قلب حقير؟
وما قيمة قبيلة كبيرة إذا حمل صاحبها ظلمًا صغير النفس؟
وما قيمة اسم واسع إذا كان صاحبه ضيق التقوى؟

إن القرآن لا يهدم الأنساب، بل يعيدها إلى حجمها.
هي علامات في الأرض، لا موازين في السماء.
هي أبواب تعارف، لا عروش تفاضل.
هي مسؤوليات، لا رخص احتقار.

ومن أراد أن يجعل نسبه طريقًا إلى الكرامة العليا، فليجعله حاملًا للتقوى والمروءة والعدل.
أما نسب بلا تقوى، فهو صوت قديم في هواء جاهلي.

سقوط المال حين ينفصل عن التقوى

والمال كذلك.

ليس المال مذمومًا لذاته.
قد يكون في يد المؤمن قوة للخير، وصلة للرحم، وبابًا للإنفاق، وحماية من ذل السؤال.
لكنه حين يتحول إلى معيار كرامة، يفسد صاحبه ومجتمعه.

كم من غني يظن أنه صار أعظم لأنه يملك أكثر.
وينسى أن المال امتحان لا شهادة تزكية.
وكم من فقير يظن الناس أنه أقل لأنه لا يملك، وفي قلبه من الصبر والعفاف ما يزن أموالًا كثيرة.

في ميزان الناس قد يسبق صاحب المال.
وفي ميزان الله يسبق صاحب التقوى.

والآية لا تسأل: من أكثر مالًا؟
بل تسأل: من أتقى في ماله؟
من اكتسبه من حلال؟
ومن أنفقه في حق؟
ومن لم يجعله سوطًا على الضعفاء؟
ومن لم ينسَ به فقره الأصلي إلى الله؟

سقوط القوة حين تنفصل عن التقوى

والقوة كذلك.

القوة بلا تقوى طغيان مؤجل.
قد تكون قوة سلطة، أو قبيلة، أو لسان، أو علم، أو جمهور، أو قدرة على الإيذاء.
كل قوة لا تحكمها التقوى تتحول إلى فتنة.

فكم من إنسان ضعيف كان كريمًا لأنه اتقى الله في ضعفه.
وكم من قوي سقط لأنه لم يتق الله في قوته.

إن التقوى تظهر في القوة أكثر مما تظهر في العجز.
فالذي لا يظلم لأنه لا يستطيع لم تكتمل شهادته بعد.
أما الذي يستطيع الظلم ثم يمتنع خوفًا من الله، فقد ظهرت فيه حقيقة التقوى.

لهذا لا تغتر السورة بالقوة الاجتماعية.
الذي يقدر على السخرية مأمور أن يكف.
والذي يقدر على اللمز مأمور أن يتوب.
والذي يقدر على التجسس مأمور أن يتوقف.
والذي يقدر على الغيبة مأمور أن يستحي.
والذي يقدر على البغي مأمور أن يفيء إلى أمر الله.

التقوى هي أن تضبط قوتك حين لا يضبطك الناس.

سقوط العلم حين ينفصل عن التقوى

حتى العلم، مع علو قدره، ليس معيار الكرامة إذا انفصل عن التقوى.

فقد يعلم الإنسان ثم يستعلي.
وقد يحسن البيان ثم يطعن.
وقد يحفظ النصوص ثم لا يتأدب بها.
وقد يعرف دقائق الخلاف، لكنه لا يعرف كيف يحفظ عرض أخيه.
وقد يتكلم عن مقاصد الشريعة، ثم يخون مقصد العدل في موقف قريب.

العلم بلا تقوى قد يجعل صاحبه أكثر قدرة على تبرير الهوى.
أما العلم بالتقوى فيصير نورًا.

وسورة الحجرات من أولها إلى آخرها تربي العالم والمتعلم على أن ميزان الفضل ليس كثرة المعرفة وحدها، بل أثر المعرفة في الأدب والعدل والرحمة واللسان.

من عرف كثيرًا ولم يتبين الخبر، فأين أثر علمه؟
ومن حفظ النصوص ثم سخر من الناس، فأين بركة حفظه؟
ومن تكلم عن الأخوة ثم اغتاب أخاه، فأين صدق دعواه؟

التقوى هي الشاهد العملي على صدق العلم.

الكرامة التي لا يملك الناس نزعها

من أعظم آثار هذه الآية أنها تمنح المؤمن كرامة لا يستطيع الناس مصادرتها.

قد يسلبونك مالًا.

وقد يطعنون في نسبك.

وقد يتجاهلون اسمك.

وقد يحرمونك من موضع يليق بك.

وقد يقدمون عليك من هو دونك في العقل والخلق.

وقد يضعون فوقك من لا يملك إلا صخبًا وعصبة.

لكنهم لا يستطيعون أن يسلبوك مقام التقوى إن صدقت مع الله.

وهذا لا يعني الرضا بالظلم أو ترك مقاومته، لكنه يعني ألا تجعل ظلم الناس تعريفًا لحقيقتك.

فحقيقتك العليا ليست في أيديهم.

كرامتك عند الله لا يقررها جاهل، ولا حاسد، ولا صاحب سلطة، ولا مجتمع مريض.

إن قوله تعالى: ﴿**عِندَ اللَّهِ**﴾

يمنح المظلومين وطنًا معنويًا لا تطاله أيدي الظالمين.

التقوى والحرية الداخلية

حين يصير معيار الكرامة هو التقوى، يتحرر الإنسان من كثير من الأسر.

يتحرر من عبودية النسب.

فلا يذل لأنه ليس من بيت مشهور، ولا يطغى لأنه من بيت مشهور.

ويتحرر من عبودية المال.
فلا يرى الفقر عارًا إذا حفظ عفته، ولا يرى الغنى شرفًا إذا خلا من التقوى.

ويتحرر من عبودية الجمهور.
فلا يطلب قيمته من تصفيقهم.

ويتحرر من عبودية الصورة.
فلا يبدد عمره في صناعة مظهر لا يشهد له قلبه.

ويتحرر من عبودية المقارنة.
لأن سؤال التقوى ليس: هل أنا أعلى من فلان؟
بل: هل أنا أقرب إلى الله مما كنت؟

وهذا تحرير عميق.
فالجاهلية تصنع إنسانًا قلقًا؛ لأنه يعيش في سباق مقاييس متغيرة.
أما القرآن فيرده إلى معيار واحد، ثابت، عادل، لا يغش ولا يظلم: التقوى عند الله.

إن الله عليم خبير

ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾

هذا الختام يضع القلب في مقام المراقبة.

الله عليم بما يظهر.
خبير بما يختبئ.
يعلم الأعمال، ويخبر الدوافع.

يعلم اللسان، ويخبر ما وراء النبرة.
يعلم الصدقة، ويخبر هل خرجت لوجهه أو لوجه الناس.
يعلم الصمت، ويخبر هل كان تقوى أو جبنًا.
يعلم الإصلاح، ويخبر هل كان عدلًا أو ميلًا مستترًا.
يعلم التواضع، ويخبر هل كان حقيقة أو مظهرًا جديدًا للغرور.

ولأن معيار الكرامة هو التقوى، ناسب أن يُختم الكلام باسمي العلم والخبرة.
فالتقوى لا يحكم عليها الناس حكمًا نهائيًا.
قد يرون آثارها، لكن حقيقتها عند الله.

وهذا يمنع الإنسان من أمرين:
من احتقار الناس؛ لأنه لا يعلم مقامهم عند الله.
ومن الاغترار بنفسه؛ لأنه لا يعلم هل قُبل منه كما يتمنى.

فهو يعيش بين رجاء وخوف، بين عمل واستغفار، بين ثقة بفضل الله وحذر من خداع النفس.

خلاصة الفصل

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

هو ميزان سورة الحجرات الأكبر.

به تسقط مقاييس الجاهلية كلها.
وإليه ترجع آداب السورة كلها.
فلا كرامة عليا بنسب بلا تقوى.

ولا بمال بلا تقوى.

ولا بقوة بلا تقوى.

ولا بعلم بلا تقوى.

ولا بانتماء بلا تقوى.

ولا بصورة دينية لا تصنع أدبًا وعدلًا ورحمة.

التقوى هي المعيار الذي يحرس الإنسان من التقدم على الوحي، ومن رفع الصوت فوق النبوة، ومن قبول الخبر بلا تبين، ومن ترك الإصلاح، ومن السخرية، واللمز، والتنابز، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، والعصبية.

وبهذا تصبح السورة كلها شرحًا حيًا لمعنى واحد:

أن الإنسان لا يكرم بكثرة ما يملك، ولا بعلو ما ينتسب إليه، بل بقدر ما يتقي الله فيما أعطي، وفيما مُنع، وفيما قال، وفيما سكت، وفيما ظهر منه، وفيما ستر.

فالكرامة عند الله لا يصنعها الضجيج.

تصنعها التقوى.

والتقوى لا تحتاج إلى شهود كثيرين.

يكفيها أن الله عليم خبير.

الفصل الحادي عشر

قالت الأعراب آمنا: الفرق بين دعوى الإيمان وحقيقته

قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

بعد أن طافت السورة بآداب الوحي، والنبوة، والخبر، والإصلاح، والكرامة، والتعارف، والتقوى؛ تعود في ختامها إلى الداخل مرة أخرى: إلى حقيقة الإيمان في القلب.

وهذا ختام بالغ الحكمة.
فقد يتأدب الإنسان في الظاهر، وقد يدخل في الجماعة، وقد يحمل اسم الإسلام، وقد يتحدث بلغة الإيمان، لكنه لم يبلغ بعد حقيقة الإيمان المستقر.

لذلك جاءت هذه الآيات لتفرّق بين **الدعوى** و**الحقيقة**، بين الانقياد الظاهر والتغلغل الباطن، بين أن يقول الإنسان: آمنت، وأن يدخل الإيمان فعلاً في قلبه.

إن السورة التي بدأت بقول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾

تختم بسؤال ضمني عميق: ما الإيمان الذي تستحقون به هذا النداء؟
أهو مجرد كلمة؟
أم حقيقة لها أثر في اليقين والطاعة والبذل والصدق؟

قالت الأعراب آمنا

قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا**﴾

الأعراب هنا جماعة قالت: آمنا.
والإشكال ليس في طلب الإيمان، بل في ادعاء مرتبته قبل تحققها.

فالقرآن لا يصادر أملهم، ولا يغلق الباب في وجوههم، لكنه يصحح التسمية.
هناك فرق بين أن يدخل الإنسان في الإسلام، وأن يبلغ كمال الإيمان.
فرق بين الانقياد الظاهر، وبين يقين دخل القلب وغيّر الإنسان من داخله.

ولهذا جاء الرد: ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾

إنه رد دقيق.
لم يقل: كفرتم.
ولم يقل: لا خير فيكم.
بل قال: لا تسموا الحال بأعلى من حقيقتها.
قولوا: أسلمنا.
أي دخلنا في الانقياد الظاهر، وبدأنا الطريق، لكن لا تدّعوا أن الإيمان قد استقر في القلوب على وجهه الكامل.

وهذا من عدل القرآن في تسمية المقامات.
لا يظلم الإنسان بإنكار أصل دخوله.
ولا يجامله برفعه إلى مقام لم يبلغه.

ولما يدخل الإيمان في قلوبكم

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾

لفظ ﴿**لَمَّا**﴾ يفيد أن الدخول لم يقع بعد، مع توقع إمكان وقوعه.
وفي هذا رحمة تربوية.
فالقرآن لا يقول: لن يدخل الإيمان.
بل يقول: لم يدخل بعد.

أي إن الباب مفتوح.
والمقام ممكن.
والطريق أمامكم.
لكن لا تستعجلوا ادعاء الثمرة قبل نضجها.

الإيمان ليس كلمة تمر على اللسان ثم تمنح صاحبها كل مقامات اليقين.
إنه دخول في القلب.
والدخول في القلب يعني أن يصير الإيمان قوة داخلية:
يحرّك الإرادة.
ويضبط اللسان.
ويؤدب الرأي.

ويجعل الإنسان يتقي الله في الخبر والخصومة والكرامة والغيب.
ويحمله على البذل إذا دعا داعي البذل.

فإذا بقي الإيمان على الشفتين، لم يزل ضعيف الأثر.
أما إذا دخل القلب، ظهر في الحياة كلها.

الإسلام بداية الطريق لا نهايته

قوله تعالى: ﴿**وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾

يقرر أن الإسلام الظاهر معتبر، لكنه ليس نهاية المقام.
فالإنسان قد يدخل في الإسلام طاعة وانقيادًا ظاهرًا، ثم يحتاج إلى تربية حتى يستقر الإيمان في قلبه.

وهذا معنى بالغ الأهمية في بناء الإنسان.
لا يصح أن نعامل البدايات كأنها نهايات.
ولا أن نمنح الدعوى منزلة الحقيقة.
ولا أن نيأس ممن لا يزال في أول الطريق.

الإسلام الظاهر باب.
والإيمان الراسخ مقام.
وبين الباب والمقام طريق من الطاعة، والصدق، والابتلاء، والمجاهدة، والتربية، وتحرير القلب من الريبة والمنّ والغرور.

ولهذا قال بعدها: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾

أي إن الطريق العملي مفتوح: أطيعوا الله ورسوله، ولن ينقصكم من أجور أعمالكم شيء.
ليست القضية طردًا من الرحمة، بل تصحيحًا للمسار.
ليس المهم أن تدّعوا المقام، بل أن تمضوا في الطاعة حتى تصيروا أهله.

إن الله غفور رحيم

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾

بعد التصحيح الشديد يأتي باب المغفرة والرحمة.

وهذه طريقة القرآن في التربية:
يمنع الغرور، لكنه لا يصنع اليأس.
يصحح الدعوى، لكنه لا يقتل الرجاء.
يقول للإنسان: لا تدعِ ما لم تبلغ، لكن لا تيأس من البلوغ.

فمن كان إيمانه ضعيفًا، فليتداركه بالطاعة.
ومن كان في أول الطريق، فليمش.
ومن كان في دعواه زيادة على حقيقته، فليتواضع ويتربَّ.
فالله غفور رحيم.

إنما المؤمنون

ثم جاءت الآية التي تحدد حقيقة الإيمان: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾

مرة أخرى تأتي ﴿**إِنَّمَا**﴾.

كما قالت السورة من قبل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

تقول هنا: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾

الأولى عرّفت أثر الإيمان في العلاقة بين المؤمنين.
والثانية عرّفت حقيقة الإيمان في القلب والعمل.

فالمؤمنون حقًا هم الذين جمعوا ثلاثة معانٍ:

الإيمان بالله ورسوله.
انتفاء الريبة.
الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله.

أي عقيدة، ويقين، وبذل.

آمنوا بالله ورسوله

الإيمان يبدأ من التصديق بالله ورسوله، لكنه ليس تصديقًا ذهنيًا باردًا.
إنه إيمان يجعل الله مركز الوجود، ورسوله طريق الهداية.

الإيمان بالله يعني أن الله هو الحق الأول، والمعبود وحده، والمرجع الأعلى، والعليم الخبير، والمالك للحكم والكرامة والجزاء.
والإيمان برسوله يعني قبول البلاغ، والتسليم للهدي، والتأدب مع النبوة، وعدم رفع صوت الرأي والهوى فوق صوت الرسالة.

وهكذا يعود ختام السورة إلى بدايتها.
فمن آمن بالله ورسوله حقًا، لم يتقدم بين يدي الله ورسوله، ولم يرفع صوته فوق صوت النبي، ولم يجعل هديه مادة هامشية في الحياة.

ثم لم يرتابوا

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾

الريبة اهتزاز داخلي.
ليست سؤال الفهم، ولا طلب العلم، ولا تدبر الدليل.
بل اضطراب في اليقين، وتردد في التسليم، وقلق في الثقة بوعد الله ورسوله.

الإيمان الصادق لا يعني أن الإنسان لا تعرض له خواطر أو أسئلة، لكنه يعني أنه لا يقيم في الريبة، ولا يجعل الشك وطنًا، ولا يترك قلبه نهبًا للتردد بعد قيام البينة.

﴿**ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾

أي ثبتوا.
استقروا.
لم يجعلوا الإيمان موجة عابرة.
لم يكونوا مع الحق ما دام سهلًا، فإذا اشتدت كلفته اضطربوا.
لم يدخلوا الدين بأجسادهم ثم تركوا قلوبهم معلقة بمقاييس أخرى.

واليقين هنا ليس جمودًا.
إنه طمأنينة قائمة على معرفة وتسليم.
يقين يجعل صاحبه قادرًا على الطاعة حين تخالف الهوى، وعلى البذل حين يثقل الثمن، وعلى الصبر حين تتأخر الثمرة.

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم

قال تعالى: ﴿**وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾

بعد الإيمان وانتفاء الريبة يأتي البذل.

فالإيمان الذي لا يكلّف صاحبه شيئًا يبقى دعوى معرضة للامتحان.
أما الإيمان الصادق فيظهر حين يطلب الله من الإنسان أن يقدم مما يحب: ماله، وراحته، وجهده، ووقته، ونفسه إذا دعا داعي الحق المشروع.

والجهاد هنا يدل على بذل واسع في سبيل الله، بحسب مواضعه المشروعة وضوابطه.
فليس المقصود مجرد الحماسة اللفظية، بل أن يخرج الإيمان من الداخل إلى كلفة العمل.

بدأت الآية بالأموال قبل الأنفس؛ لأن المال موضع تعلق حاضر، ولأن بذله امتحان دائم.
كم من إنسان يدّعي اليقين، فإذا دُعي إلى البذل ضاق قلبه.
وكم من إنسان يتكلم عن سبيل الله، فإذا مسّ ذلك ماله وراحته وموقعه تراجع.

الإيمان الصادق لا يبقى في منطقة الآمن دائمًا.
لا بد أن يمتحن.
والبذل هو أحد شهود الصدق.

أولئك هم الصادقون

قال تعالى: ﴿**أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾

الصدق هنا ليس صدق اللسان فقط، بل صدق الوجود كله.

صدقوا حين آمنوا.
وصدقوا حين لم يرتابوا.
وصدقوا حين بذلوا.
وصدقوا حين لم يجعلوا الإيمان دعوى بلا كلفة.

فالقرآن يربط الصدق بالمطابقة بين الدعوى والحقيقة.
من قال آمنت، ثم ظهر أثر إيمانه في اليقين والعمل، فهو صادق.
أما من استعجل الاسم قبل الحقيقة، فهو محتاج إلى تربية وتصحيح.

وهذه الآية تضع معيارًا قاسيًا على النفس، رحيمًا بها في الوقت نفسه.
قاسيًا لأنه لا يسمح لها بالزهو بالدعوى.
ورحيمًا لأنه يدلها على الطريق: آمن، اثبت، ابذل، تكن من الصادقين.

أتعلّمون الله بدينكم؟

ثم قال تعالى: ﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾

هذا استفهام شديد.

فالذي يدّعي مقامًا لم يبلغه كأنه يريد أن يخبر الله بحقيقته.

كأنه يقول: نحن مؤمنون.

فيأتي الرد: أتعلّمون الله بدينكم؟

إن الله لا يحتاج إلى شهادتنا على أنفسنا.

هو أعلم بنا منا.

يعلم حقيقة إيماننا، ومقدار صدقنا، وما دخل قلوبنا وما لم يدخل، وما نقوله وما نخفيه، وما نبذله وما نمسكه، وما نعلنه من الدعوى وما يكذبه السلوك.

وهذا المعنى يربي الإنسان على الحياء من الله في التزكية.

لا تكثر من إعلان مقامك.

لا تقدم نفسك إلى الله بألقابك.

لا تظن أن الدين دعوى تصنعها العبارة.

الله يعلم.

وإذا كان الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فكيف لا يعلم حقيقة قلبك؟

يمنون عليك أن أسلموا

ثم قال تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم**﴾

هنا مرض آخر: المنّ بالدين.

قد يدخل الإنسان في الطاعة، ثم يتصرف كأنه صاحب فضل على الدين.
كأنه أعطى الإسلام من نفسه ما يستوجب المكافأة الخاصة.
كأن الحق احتاج إليه.
كأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المنتفع بدخوله.
كأن الجماعة مدينة له لأنه انضم إليها.

وهذا قلب للمعنى كله.
فالإنسان هو المحتاج إلى الهداية.
والدين لا يزداد حقًا بدخوله فيه، ولا ينقص حقًا بخروجه منه.
ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه.

لذلك جاء الرد: ﴿**لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم**﴾

لا تجعلوا إسلامكم منّة على الرسول.
لا تقدموا الطاعة كأنها هدية منكم إلى الله ورسوله.
لا تنظروا إلى الدين من زاوية ما قدمتم، بل من زاوية ما أنقذكم الله به.

بل الله يمن عليكم

قال تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾

هنا يعيد القرآن ترتيب الفضل.

ليس الفضل لكم أن أسلمتم.
الفضل لله أن هداكم.

العبد لا يمنّ بطاعته؛ لأنه لم يطع إلا بتوفيق الله.
ولا يمنّ بإيمانه؛ لأن الهداية نعمة من الله.
ولا يمنّ ببذله؛ لأن المال والنفس والقدرة كلها من الله.

هذا لا يلغي مسؤولية الإنسان، لكنه يمنعه من الغرور.
الإنسان يعمل، ويختار، ويطيع، ويجاهد نفسه، لكنه يعلم أن الله هو الذي فتح له الباب، وشرح صدره، وأقامه في طريق الهداية.

فإذا صدق، رأى الطاعة نعمة لا منّة.
ورأى الإيمان فضلًا لا وسامًا ذاتيًا.
ورأى نفسه مدينًا لله في كل سجدة، وكل كلمة حق، وكل صبر، وكل بذل.

إن كنتم صادقين

قال تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾

يعود ختام هذه الآيات إلى الصدق مرة أخرى.

الصدق هو الفاصل بين الدعوى والحقيقة.
فإن كنتم صادقين، فاعلموا أن الله هو صاحب الفضل في الهداية.
وإن كنتم صادقين، فلا تمنوا على الرسول بإسلامكم.
وإن كنتم صادقين، فدعوا أعمالكم تشهد، لا ألسنتكم وحدها.

والصدق في القرآن ليس مجرد ألا تكذب، بل أن تتطابق طبقات الإنسان:
لسانه مع قلبه.
وقوله مع عمله.
ودعواه مع بذله.
وظاهره مع ما يعلمه الله من باطنه.

إن الله يعلم غيب السماوات والأرض

ثم تختم السورة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

هذا الختام يعيد السورة كلها إلى مراقبة الله.

من أولها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾

إلى آخرها: ﴿**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

كأن السورة محاطة بعلم الله وسمعه وبصره.
وما بينهما تربية كاملة للإنسان:
في صوته، وخبره، وعدله، ولسانه، وظنه، وغيابه، ونسبه، ودعواه.

الله يعلم غيب السماوات والأرض، فكيف لا يعلم غيب قلبك؟
والله بصير بما تعملون، فكيف تخفى عليه حقيقة إيمانك؟

هذا الختام يمنع الإنسان من الاحتماء بالمظاهر.
قد تقول: آمنت.
قد يراك الناس مسلمًا.

قد تمدح نفسك.
قد تمنّ بطاعتك.
لكن الله بصير.

والبصر هنا ليس علمًا مجردًا، بل علم محيط بالعمل وحقيقته وأثره ومقصده.

ختام السورة: العودة إلى الداخل

من العجيب أن سورة الحجرات بدأت بتأديب المؤمن في علاقته بمقام الوحي، ثم ختمت بتأديبه في علاقته بدعوى الإيمان.

في البداية قالت له:
لا تتقدم.

وفي النهاية قالت له:
لا تدّعِ ما لم يدخل قلبك.

في البداية ضبطت موقعه أمام الله ورسوله.
وفي النهاية كشفت حقيقة موقع الإيمان في قلبه.

وهذا يعني أن كل آداب السورة لا تنفصل عن الحقيقة الداخلية.
فمن لم يدخل الإيمان قلبه، ستبقى الآداب عنده تكاليف خارجية ثقيلة.
أما إذا دخل الإيمان، صارت هذه الآداب ثمرات طبيعية لوجدان مؤدب بالله.

خلاصة الفصل

تختم سورة الحجرات بتمييز حاسم بين الإسلام الظاهر والإيمان الراسخ.

الإسلام بداية الانقياد.
والإيمان حقيقة تدخل القلب.
والدعوى لا تكفي حتى يشهد لها اليقين والعمل والبذل.
والله لا تخدعه العبارات، ولا يحتاج إلى من يعلّمه بدينه، ولا يقبل منّ العبد بطاعة لم تكن إلا بتوفيقه.

المؤمنون الصادقون هم الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.
هؤلاء لم يكتفوا بقول الإيمان، بل حملوا كلفته.
لم يجعلوا الدين زينة هوية، بل حقيقة بذل ويقين.

وهكذا تنتهي السورة حيث ينبغي لكل تربية أن تنتهي: عند القلب.
فلا قيمة لأدب اللسان إن كان القلب متكبرًا.
ولا قيمة لدعوى الإيمان إن لم يدخل الإيمان القلب.
ولا معنى للانتماء إن صار منّة على الدين.
ولا كرامة إلا بتقوى يعلمها الله، ويصدقها العمل.

سورة الحجرات في خاتمتها تقول للإنسان:
لا تكتفِ باسمك بين المؤمنين، بل فتش عن حقيقة الإيمان في قلبك.
لا تعرض دينك على الناس دعوى، بل اعرض نفسك على علم الله.

لا تمنّ بطاعتك، بل احمد الله أن هداك إليها.

ولا تنسَ أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بما تعملون.

الخاتمة

المجتمع الذي يبدأ من أدب القلب

إذا انتهت سورة الحجرات إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

فإنها لا تختم موضوعًا جزئيًا، بل تختم رحلة تربوية كاملة.

رحلة بدأت من مقام الوحي، وانتهت إلى غيب القلب.

بدأت من النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وانتهت إلى النهي عن ادعاء إيمان لم يستقر بعد في الباطن.

وما بين البداية والخاتمة، رسمت السورة صورة الإنسان كما يريد الوحي أن يربيه: إنسان يعرف قدر الله، ويعرف مقام الرسول، ويعرف حرمة الخبر، ويعرف واجب الإصلاح، ويعرف كرامة أخيه، ويعرف حدود لسانه، ويعرف خطر ظنه، ويعرف حرمة الغائب، ويعرف أن القبائل والشعوب للتعارف لا للتفاخر، ويعرف أن التقوى وحدها هي معيار الكرامة عند الله.

إن سورة الحجرات ليست سورة آداب متفرقة.

إنها بناء متماسك.

كل آية فيها تسلمك إلى التي بعدها.

وكل أدب فيها يحرس أصلًا أعمق منه.

وكل نهي فيها لا يريد المنع المجرد، بل يريد إنشاء إنسان جديد: إنسان

مؤدب بالوحي، نقيّ اللسان، يقظ العقل، رحيم النظر، عادل الخصومة، صادق الدعوى.

من لا تقدّموا إلى بصير بما تعملون

افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾

وهذه البداية وضعت الإنسان في موضعه الصحيح: خلف الوحي لا أمامه.

فإذا تقدم الإنسان على الوحي، فسد كل شيء بعد ذلك.
سيحكم بالهوى.
ويصدق ما يحب.
ويخاصم بما يشتهي.
ويستعمل لسانه بلا تقوى.
ويجعل نسبه أو جماعته أو رأيه أو ذوقه معيارًا للحق.
ثم ربما ادعى الإيمان، وهو لم يترك للوحي أن يقود قلبه.

لذلك كان أول أدب في السورة هو أدب المرجعية.
أن يعرف الإنسان أن الله ورسوله أمامه، لا خلفه.
وأن النص قائد لا تابع.
وأن العقل لا يشرف بأن يعاند الوحي، بل يشرف بأن يفهم عنه، ويعمل في نوره، ويخدم مقاصده.

ثم جاء أدب الصوت: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾

فمن لم يضبط موقعه من الوحي، لن يضبط صوته في حضرة النبوة.
ومن لم يعرف قدر الرسول صلى الله عليه وسلم، لن يعرف قدر ما جاء به.
فالأدب مع النبي ليس زينة وجدانية، بل حراسة لطريق الهداية.
إنه أدب مع الباب الذي جاء منه النور.

ثم جاءت آية الخبر: ﴿**إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾

وكأن السورة تقول: الذي تربى على ألا يتقدم على الوحي، ينبغي أن يتربى على ألا يتقدم على الحقيقة.
لا تجعل أذنك ممرًا للظلم.
لا تجعل غضبك شاهدًا.
لا تجعل ناقلًا فاسقًا مهندسًا لمواقفك.
لا تسمح للجهالة أن تلبس ثوب المعرفة.

ثم جاءت آيات الإصلاح: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا**﴾

فالخبر إذا لم يُضبط قد يصنع فتنة، والفتنة إذا وقعت لا يجوز تركها بلا إصلاح.
لكن الإصلاح في القرآن ليس ترضية سطحية، ولا تسوية تبتلع حق المظلوم.
إنه إصلاح بالعدل، وقسط، وردع للبغي، وعودة إلى أمر الله.

ثم جاءت الآية الجامعة: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

فالأخوة ليست عاطفة بلا كلفة.
إنها واجب إصلاح.

الأخوة ليست أن نبتسم عند الرخاء، بل أن نحفظ المعنى عند النزاع.
وليست أن نسكت عن خطأ أخينا، بل أن نرده إلى الحق، وأن نحفظ له أصل الكرامة وهو راجع إليه.

ثم دخلت السورة إلى اللسان: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ**﴾

لأن المجتمع لا يتمزق بالقتال وحده.
قد يتمزق بالكلمة.
بالضحكة الجارحة.
باللقب المسموم.
باللمز الخفي.
بالاستهانة التي تترك في القلب أثرًا لا يراه الناس.

ثم دخلت إلى الداخل: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**﴾

لأن اللسان لا يمرض وحده.
قبله يمرض القلب.
الظن السيئ معمل خفي لصناعة العداوات.
وإذا تركه الإنسان يعمل في داخله، خرج بعد ذلك تجسسًا وغيبة وقطيعة.

ثم جاءت حرمة الغيب الإنساني: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾

كأن السورة تقول: لا يكفي أن يكون أخوك آمنًا منك وهو حاضر.
ينبغي أن يكون آمنًا منك وهو غائب.
آمنًا على ستره.

آمنًا على عرضه.
آمنًا على اسمه حين لا يستطيع الدفاع عنه.

ثم ارتفعت السورة من دائرة المؤمنين إلى دائرة الناس: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾

وهنا ظهرت عالمية المعنى.
فالأدب الذي يتربى عليه المؤمن لا يحبسه داخل جماعته، بل يفتح نظره على البشرية كلها.
الخلق واحد.
والتنوع مقصود.
والشعوب والقبائل ليست منصات للكبر، بل علامات للتعارف.
أما الكرامة العليا فهي بالتقوى.

ثم ختمت السورة بالداخل مرة أخرى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا**﴾

فبعد كل هذه الآداب، بقي السؤال الحاسم: هل دخل الإيمان القلب؟
هل صار حقيقة لا ادعاء؟
هل تحول إلى يقين بلا ريبة، وبذل بلا منّ، وطاعة بلا استعلاء؟

وهكذا تلتئم السورة في قوس واحد:
من الوحي إلى القلب.
ومن القلب إلى المجتمع.
ومن المجتمع إلى الإنسانية.
ثم من الإنسانية إلى القلب مرة أخرى.

سورة الحجرات: دستور الوجدان

إذا قلنا إن سورة الحجرات هي **دستور الوجدان**، فذلك لأنها لا تكتفي بتنظيم الأفعال، بل تنظم منابع الأفعال.

القانون قد يمنع اليد من الاعتداء.
أما السورة فتمنع القلب من الاحتقار.

القانون قد يعاقب على التشهير.
أما السورة فتربيك أن تكره الغيبة قبل أن تتكلم بها.

القانون قد يطلب الدليل قبل الحكم.
أما السورة فتجعل التبين عبادة.

القانون قد ينظم الخصومة.
أما السورة فتذكرك أن خصمك المؤمن أخوك، وأن ردع البغي لا يعني نسيان الأخوة.

القانون قد يمنع التمييز الظاهر.
أما السورة فتهدم في داخلك صنم النسب والقبيلة واللون، وتعيدك إلى ميزان التقوى.

إنها دستور لأنها ترسم حدودًا.
ودستور وجدان لأنها تجعل هذه الحدود حية في الداخل، لا مرسومة على الورق فقط.

وهذا هو الفرق بين التربية الإلهية والتنظيم البشري المجرد.
التنظيم يراقب السلوك من الخارج.
أما القرآن فيوقظ في الداخل عينًا ترى الله.

السورة التي تنظف الهواء الاجتماعي

لكل مجتمع هواء غير مرئي.
قد يكون هواءً نظيفًا، يشعر فيه الإنسان بالأمان والكرامة والستر والعدل.
وقد يكون هواءً ملوثًا، ممتلئًا بالظنون، والسخرية، والغيبة، والتربص، والعصبيات، واحتقار الضعيف.

سورة الحجرات تنظف هذا الهواء.

تنظفه من ضجيج الذات أمام الوحي.
ومن قلة التوقير في مقام النبوة.
ومن الشائعات التي تسمم الوعي.
ومن الحياد الكاذب أمام البغي.
ومن الأخوة اللفظية التي لا تصلح عند النزاع.
ومن السخرية التي تسحق النفوس باسم الضحك.
ومن اللمز الذي يطعن ولا يواجه.
ومن الألقاب التي تحبس الإنسان في وصمة.
ومن الظن الذي يحاكم الناس في الظلام.
ومن التجسس الذي يهتك الستر.
ومن الغيبة التي تأكل الغائب.

ومن العصبية التي تحول التنوع إلى تفاخر.
ومن الدعوى التي تتعجل مقام الإيمان قبل أن يدخل القلب.

إنها سورة تجعل المجتمع قابلًا للسكنى الروحية.
ليس فقط لأن قوانينه عادلة، بل لأن ضمائر أفراده مؤدبة.
فالإنسان لا يحتاج إلى عدل المحاكم وحده، بل يحتاج إلى عدل المجالس.
ولا يحتاج إلى أمن الطرق وحده، بل إلى أمن الغيبة.
ولا يحتاج إلى حماية جسده وحده، بل إلى حماية كرامته وصورته واسمه وستر بيته.

الأخلاق هنا ليست وعظًا ناعمًا

من الخطأ أن نقرأ سورة الحجرات قراءة وعظية رخوة، كأنها تدعو فقط إلى أن نكون لطفاء.
السورة أعمق وأشد.

إنها لا تطلب لطفًا بلا حق.
ولا رحمة بلا عدل.
ولا أخوة بلا ردع للبغي.
ولا سترًا يضيع الحقوق.
ولا تعارفًا يلغي التقوى.
ولا دعوى إيمان بلا صدق.

أخلاق السورة ليست ليونة مائعة.
إنها أخلاق قوية؛ لأنها محكومة بالوحي.

فيها خفض صوت، وفيها قتال للباغي حتى يفيء إلى أمر الله.
فيها منع للسخرية، وفيها تسمية لمن لم يتب بأنه ظالم.
فيها فتح باب الرحمة، وفيها كشف لمن يمنّ بدينه.
فيها وحدة إنسانية، وفيها معيار حاسم للتقوى.

إنها سورة توازن بين الجمال والجلال.
جمال الرحمة، وجلال العدل.
جمال الأخوة، وجلال القسط.
جمال التعارف، وجلال التقوى.
جمال الستر، وجلال الحق.

ولهذا لا تصلح قراءتها قراءة سطحية.
إنها ليست درسًا في المجاملة، بل بناء صارم للإنسان المؤتمن على أخيه.

الإنسان في سورة الحجرات

الإنسان الذي تصنعه سورة الحجرات إنسان ذو ملامح واضحة.

إنه لا يتقدم على الله ورسوله.
فمرجعيته مضبوطة.

ولا يرفع صوته فوق صوت النبي.
فأدبه محفوظ.

ولا يقبل الخبر بلا تبين.
فعقله مؤتمن.

ولا يترك النزاع يفتك بالجماعة.
فمسؤوليته حاضرة.

ولا يساوي بين الظالم والمظلوم باسم الصلح.
فعدله يقظ.

ولا يرى الأخوة شعارًا، بل واجبًا.
فانتماؤه عامل لا خامد.

ولا يسخر من الناس.
فقلبه لا يتغذى على الاحتقار.

ولا يلمز ولا يتنابز.
فلسانه لا يستعمل الكرامة مادة للعبث.

ولا يسترسل مع الظنون.
فداخله مراقب.

ولا يتجسس.
فهو يحترم ستر الله على الخلق.

ولا يغتاب.
فالغائب عنده محفوظ كالحاضر.

ولا يفاخر بشعب أو قبيلة.
فهو يرى التنوع باب تعارف.

ولا يجعل الكرامة إلا حيث جعلها الله: في التقوى.
فميزانه رباني.

ولا يدعي الإيمان قبل أن يفتش عن حقيقته في قلبه.
فهو صادق مع نفسه أمام الله.

هذا الإنسان ليس ملاكًا، لكنه متربٍّ.
قد يخطئ، لكنه يعرف طريق التوبة.
قد يضعف، لكنه لا يحول ضعفه إلى منهج.
قد يغضب، لكنه لا يجعل الغضب إلهًا.
قد يختلف، لكنه لا ينسى الميزان.
قد يجهل، لكنه يتبين.
قد يتأذى، لكنه لا يأكل عرض أخيه.

مركزية التقوى

لو أردنا أن نجعل للسورة كلمة جامعة بعد التوحيد والأدب، لكانت: **التقوى**.

التقوى تأتي في أول السورة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾

وتأتي في أثناء السورة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

وتأتي بعد الغيبة: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾

وتبلغ الذروة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾

فالتقوى هي الخيط الذي يشد السورة كلها.
وهي ليست شعورًا غائمًا، بل يقظة عملية في مواضع دقيقة.

تقوى في التلقي.
تقوى في الصوت.
تقوى في الخبر.
تقوى في الخصومة.
تقوى في اللسان.
تقوى في الظن.
تقوى في الغياب.
تقوى في النظر إلى الشعوب والقبائل.
تقوى في دعوى الإيمان.

وبهذا تعلمنا السورة أن التقوى ليست محصورة في محراب العبد فقط، بل تظهر في السوق، والمجلس، والسياسة، والمجتمع، والنسب، والخصومة، وطريقة الكلام عن الغائبين.

إنها تقوى اجتماعية، معرفية، وجدانية، ولسانية، حضارية.
ومن حصر التقوى في صورة ضيقة، لم يفهم اتساعها في القرآن.

من الأخوة إلى الإنسانية

من أبدع ما في بناء السورة أنها لا تجعل الأخوة الإيمانية حجابًا عن الإنسانية العامة.

تقول أولًا: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾

ثم تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾

فهي تبني الخاص، ثم تفتحه على العام.
تؤسس أخوة الإيمان، ثم تضعها داخل وحدة الأصل الإنساني.
لا تذيب المؤمن في إنسانية بلا عقيدة، ولا تجعله أسير جماعة تنسى أصل الخلق.

وهذا ميزان عظيم.
فالمؤمن له أخوة خاصة مع المؤمنين، لها حقوقها وواجباتها.
وله كذلك نظر إنساني عام إلى الناس كلهم، يمنعه من احتقارهم لأجناسهم وألوانهم وأنسابهم.

فلا عصبية دينية مشوهة تلغي كرامة الإنسان.
ولا إنسانية مائعة تلغي معيار التقوى.
بل إنسانية مخلوقة لله، وكرامة عليا بالتقوى، وتعارف يحفظ التعدد، ووحي يضبط الميزان.

السورة في زمن الضجيج

ما أحوج زمننا إلى سورة الحجرات.

زمن يرفع الأصوات فوق المعاني.
ويقدم الأهواء على الوحي.
ويبتلع الأخبار قبل التثبت.
ويحاكم الناس بالمقاطع المبتورة.
ويجعل الشائعة أسرع من العدل.

ويحوّل الخلاف إلى قطيعة.
والنقد إلى سخرية.
والسخرية إلى ثقافة.
والغيبة إلى محتوى.
والتجسس إلى فضول مشروع.
والقبيلة أو الحزب أو الجماعة أو الطبقة إلى صنم جديد.
والإيمان إلى دعوى سهلة قليلة الكلفة.

في مثل هذا الزمن، لا تأتي سورة الحجرات كذكرى تاريخية.
تأتي كحاجة يومية.

نحتاجها قبل أن نشارك خبرًا.
وقبل أن نحكم على إنسان.
وقبل أن نسخر من عيب.
وقبل أن نخوض في غائب.
وقبل أن نرفع انتماءنا فوق الحق.
وقبل أن نمنّ على الدين بشيء فعلناه.
وقبل أن نسمّي أنفسنا بما لم تبلغه قلوبنا.

إنها سورة تقف في وجه الفوضى الناعمة: فوضى اللسان، وفوضى الخبر، وفوضى الظن، وفوضى الهوية، وفوضى الدعوى.

التربية القرآنية لا تفصل الداخل عن الخارج

من أهم ما تكشفه السورة أن القرآن لا يفصل بين إصلاح القلب وإصلاح المجتمع.

بعض الناس يريد أخلاقًا فردية لا شأن لها بالبناء الاجتماعي.
وبعضهم يريد قوانين اجتماعية بلا تربية قلبية.

أما سورة الحجرات فتجمع الأمرين.

تصلح القلب، حتى لا يحتقر.
وتصلح اللسان، حتى لا يجرح.
وتصلح العقل، حتى لا يصدق بلا بينة.
وتصلح المجتمع، حتى لا يترك البغي.
وتصلح الهوية، حتى لا تتحول إلى عصبية.
وتصلح الدعوى، حتى لا تنفصل عن الحقيقة.

فالداخل والخارج في القرآن متصلان.
الظن الداخلي قد يصير تجسسًا.
والتجسس قد يصير غيبة.
والغيبة قد تصير تشويهًا.
والخبر الكاذب قد يصير قتالًا.
والعصبية الداخلية قد تصير ظلمًا في الواقع.
والإيمان إذا دخل القلب صار أدبًا وعدلًا وبذلًا.

الأدب بوصفه علمًا بالمقام

كلمة الأدب في هذه السورة ليست ترفًا لغويًا.
الأدب هنا علم بالمقام.

أن تعرف مقام الله ورسوله، فلا تتقدم.
وتعرف مقام النبي، فلا ترفع صوتك.
وتعرف مقام الخبر، فلا تتسرع.
وتعرف مقام الخصومة، فلا تتركها بلا عدل.
وتعرف مقام الأخوة، فلا تحولها إلى كلمة فارغة.
وتعرف مقام كرامة الإنسان، فلا تسخر ولا تلمز.
وتعرف مقام الستر، فلا تتجسس.
وتعرف مقام الغياب، فلا تغتب.
وتعرف مقام التنوع، فلا تتفاخر.
وتعرف مقام الإيمان، فلا تدعيه بلا صدق.

فالأدب في السورة ليس قشرة السلوك، بل فقه المقامات.
ومن جهل المقامات أساء ولو تكلم كثيرًا عن الفضائل.

رسالة السورة للكاتب والمفكر والمصلح

لهذه السورة خطاب خاص لكل من يحمل كلمة أو فكرة أو مشروع إصلاح.

فالكاتب الذي لا يتبين قد يظلم بقلمه.
والمفكر الذي يرفع صوته فوق الوحي قد يضلّ وهو يظن أنه يحرر العقل.
والمصلح الذي يساوي بين الباغي والمظلوم قد يقتل العدل باسم السلم.

والداعية الذي يمنّ بعمله ينسى أن الهداية فضل الله.
والناقد الذي يسخر يفقد شرف النقد.
وصاحب الرأي الذي يلمز ويغتاب يهدم بلسانه ما يزعم بناءه بفكره.

سورة الحجرات تطلب من صاحب الكلمة أن يكون أكثر الناس خوفًا من الكلمة.
لأن الكلمة قد ترفع، وقد تهدم.
قد تصلح، وقد تفتن.
قد تكون شهادة، وقد تكون غيبة.
قد تكون بيانًا، وقد تكون لمزًا.
قد تكون نصحًا، وقد تكون تشفيًا.

ولذلك فالفكر المؤدب بالوحي ليس فكرًا ضعيفًا، بل فكر يعرف أن الحق لا يحتاج إلى قلة أدب، وأن البيان لا يكتمل إلا بالعدل، وأن القوة لا تعني الإيذاء، وأن جمال العبارة لا يغفر فساد النية.

خاتمة الخاتمة

سورة الحجرات قصيرة، لكنها واسعة كالضمير الإنساني حين يفتحه الوحي على الله والناس.

إنها تقول لنا:
ابدؤوا من حيث يبدأ الإصلاح الحقيقي: من موقعكم أمام الله ورسوله.
ثم اضبطوا أصواتكم.
ثم طهروا عقولكم من التسرع.

ثم أصلحوا خصوماتكم بالعدل.

ثم احفظوا أخوتكم.

ثم صونوا كرامة الناس من ألسنتكم.

ثم طهروا ظنونكم.

ثم احرسوا ستر الغائبين.

ثم انظروا إلى البشرية بعين التعارف لا العصبية.

ثم لا تنسوا أن الكرامة عند الله بالتقوى.

ثم فتشوا في قلوبكم: هل دخل الإيمان حقًا، أم لا يزال على الباب؟

هذه هي السورة.

دستور وجدان.

وميثاق مجتمع.

ومدرسة أدب.

وميزان كرامة.

ومرآة تكشف للإنسان مقدار صدقه.

إنها تعلمنا أن الإنسان لا يكون مؤمنًا ناضجًا بمجرد أن يترك الشر الكبير الظاهر، بل حين يتربى على ترك الشر الصغير الذي يراه الناس خفيفًا، ويراه الله عظيم الأثر: كلمة ساخرة، ظن سيئ، خبر بلا تثبت، لقب جارح، غيبة في مجلس، عصبية في القلب، دعوى بلا حقيقة.

وفي النهاية، يعود الأمر كله إلى الله: ﴿**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾

هو البصير بالعمل حين يراه الناس.

والبصير بالقلب حين لا يراه أحد.

والبصير بالكلمة قبل أن تخرج، وبأثرها بعد أن تمضي.
والبصير بالدعوى وبالحقيقة.
والبصير بمن اتقى، ومن تزيّن بصورة التقوى.

فطوبى لمن قرأ سورة الحجرات لا ليحفظ آدابها فقط، بل ليعرض عليها صوته، وخبره، وظنه، ولسانه، وخصومته، وانتماءه، ودعواه، وقلبه.

وطوبى لمجتمع جعل هذه السورة في هوائه اليومي؛ فلا يتنفس أبناؤه إلا وفيهم بقية حياء من الله، وبقية خوف على كرامة الإنسان، وبقية وفاء لمعنى الأخوة، وبقية توقير للوحي الذي إن هذب القلب، هذب العالم كله.

فهرس الكتاب

بين يدي الكتاب: سورة بناء الإنسان المؤدَّب بالوحي ـــ ٣
المقدمة: السورة التي تبدأ من الصوت وتنتهي بالتقوى ـــ ٥

الفصل الأول: لا تُقدِّموا ـــ حين يتربّى العقل على الوقوف خلف الوحي ـــ ١٠

- معنى التقديم بين يدي الله ورسوله ـــ ١٢
- التقوى حارسة الأدب ـــ ١٣
- من أدب التلقي إلى أدب الحياة ـــ ١٥
- حين يصير الوحي مركز الوعي ـــ ١٧
- خلاصة الفصل ـــ ١٨

الفصل الثاني: لا ترفعوا أصواتكم ـــ أدب الحضور بين يدي النبوة ـــ ١٩

- حين يكون الصوت امتحانًا للقلب ـــ ٢٠
- حسُّ المقام ـــ ٢١
- لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ـــ ٢٢
- الأدب بعد وفاة النبي ﷺ ـــ ٢٣
- غضُّ الصوت: من حركة اللسان إلى امتحان القلب ـــ ٢٤
- لهم مغفرة وأجر عظيم ـــ ٢٥
- الذين ينادونك من وراء الحجرات ـــ ٢٦
- الصبر حتى يخرج إليهم ـــ ٢٧
- والله غفور رحيم ـــ ٢٨
- ما الذي تعلّمنا إياه هذه الآيات؟ ـــ ٢٩
- من صوت المجلس إلى ضجيج العصر ـــ ٣٠
- أدب النبوة وأدب المجتمع ـــ ٣١
- خلاصة الفصل ـــ ٣٢

الفصل الثالث: فتبيَّنوا ـــ صيانة الوعي من جهالة الخبر ـــ ٣٣

- النبأ ليس خبرًا عابرًا ـــ ٣٤
- الفاسق والخلل في أمانة النقل ـــ ٣٥
- الجهالة ليست غياب المعلومة فقط ـــ ٣٦
- الندم المتأخر ـــ ٣٧
- التبيُّن عبادة العقل ـــ ٣٨

- الخبر في زمن الضجيج ـــ ٣٩
- من التبيُّن إلى الإصلاح ـــ ٤٠
- خلاصة الفصل ـــ ٤١

الفصل الرابع: فأصلحوا ـــ العدل حين يصير عبادة اجتماعية ـــ ٤٣

- الإصلاح ليس مجاملة ـــ ٤٤
- مواجهة البغي وحماية الجماعة ـــ ٤٥
- حتى تفيء إلى أمر الله ـــ ٤٦
- فأصلحوا بينهما بالعدل ـــ ٤٧
- إن الله يحب المقسطين ـــ ٤٨
- إنما المؤمنون إخوة ـــ ٤٩
- فأصلحوا بين أخويكم ـــ ٥٠
- واتقوا الله لعلكم تُرحمون ـــ ٥١
- الإصلاح وفقه العمران ـــ ٥٣
- الحياد حين يكون خيانة ـــ ٥٤
- الإصلاح يبدأ من الداخل ـــ ٥٥
- خلاصة الفصل ـــ ٥٦

الفصل الخامس: إنما المؤمنون إخوة ـــ من رابطة العقيدة إلى واجب الإصلاح ـــ ٥٧

- «إنما»: حصر المعنى وتطهير الرابطة ـــ ٥٨
- المؤمنون: رابطة مبنية على الوحي ـــ ٥٩
- إخوة: الكلمة التي تمنع التوحش ـــ ٦٠
- فأصلحوا: الأخوة تكليف لا عاطفة فقط ـــ ٦١
- بين أخويكم: إعادة تسمية المتخاصمين ـــ ٦٢
- واتقوا الله: حتى لا يفسد الإصلاح ـــ ٦٣
- لعلكم تُرحمون: الرحمة ثمرة الاجتماع العادل ـــ ٦٤
- الأخوة بين المثال والامتحان ـــ ٦٥
- الأخوة لا تلغي العدل ـــ ٦٦
- من رابطة العقيدة إلى أدب الحياة اليومية ـــ ٦٧
- المجتمع المؤدَّب بالأخوة ـــ ٦٧
- خلاصة الفصل ـــ ٦٨

الفصل السادس: لا يسخر قوم من قوم ـــ حماية الكرامة من عبث اللسان ـــ ٧٠

- لا يسخر قوم من قوم ـــ ٧١
- «عسى»: كلمة تهدم يقين المتكبر ـــ ٧٢

- ولا نساء من نساء ـــ ٧٣
- ولا تلمزوا أنفسكم ـــ ٧٤
- النفس الجماعية في القرآن ـــ ٧٥
- ولا تنابزوا بالألقاب ـــ ٧٦
- بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ـــ ٧٧
- ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ـــ ٧٨
- السخرية بوصفها مرضًا حضاريًّا ـــ ٧٩
- الفرق بين النقد والسخرية ـــ ٨٠
- حين يسخر الإنسان من نفسه ـــ ٨١
- التربية على حرمة الكرامة ـــ ٨٢
- خلاصة الفصل ـــ ٨٣

الفصل السابع: اجتنبوا كثيرًا من الظن ـــ تطهير الداخل قبل تطهير المجتمع ـــ ٨٥

- اجتنبوا كثيرًا من الظن ـــ ٨٦
- إن بعض الظن إثم ـــ ٨٧
- الظن حين يصنع عالمًا كاذبًا ـــ ٨٨
- لا تجسسوا: حين يريد الظن دليله ـــ ٨٩
- الفرق بين التبيُّن والتجسس ـــ ٩٠
- ولا يغتب بعضكم بعضًا ـــ ٩١
- أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؟ ـــ ٩٣
- الغيبة وأكل المعنى ـــ ٩٤
- واتقوا الله إن الله تواب رحيم ـــ ٩٥
- تطهير الداخل شرط لطهارة المجتمع ـــ ٩٦
- خلاصة الفصل ـــ ٩٧

الفصل الثامن: لا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا ـــ حرمة الغيب الإنساني ـــ ٩٩

- التجسس: فضول حين يفقد التقوى ـــ ١٠٠
- الستر أصل من أصول الرحمة ـــ ١٠١
- حين يتحول الإنسان إلى ملف ـــ ١٠٢
- الغيبة: اغتيال الحضور في الغياب ـــ ١٠٣
- أيحب أحدكم؟ ـــ ١٠٤
- أن يأكل لحم أخيه ميتًا ـــ ١٠٥
- فكرهتموه ـــ ١٠٦
- المجالس بوصفها اختبارًا للتقوى ـــ ١٠٧

- متى لا يكون الكلام غيبة مذمومة؟ ـــ ١٠٨
- واتقوا الله ـــ ١٠٩
- إن الله تواب رحيم ـــ ١١٠
- حرمة الغيب الإنساني ـــ ١١١
- أثر الغيبة في بنية المجتمع ـــ ١١٢
- خلاصة الفصل ـــ ١١٣

الفصل التاسع: وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ـــ من العصبية إلى إنسانية التعارف ـــ ١١٥

- يا أيها الناس ـــ ١١٦
- إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ـــ ١١٧
- وجعلناكم شعوبًا وقبائل ـــ ١١٨
- لتعارفوا ـــ ١١٩
- من القبيلة إلى القيمة ـــ ١٢٠
- إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـــ ١٢١
- عند الله: تحرير الكرامة من محاكم الناس ـــ ١٢٢
- إن الله عليم خبير ـــ ١٢٣
- التعارف لا يعني تمييع الحق ـــ ١٢٤
- التعارف بوصفه مشروعًا حضاريًّا ـــ ١٢٥
- من آفات العصر: الهويات الجارحة ـــ ١٢٦
- خلاصة الفصل ـــ ١٢٧

الفصل العاشر: إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـــ سقوط مقاييس الجاهلية ـــ ١٢٩

- أكرمكم: معنى الكرامة في ضوء الوحي ـــ ١٣٠
- عند الله: المحكمة التي لا تخدعها الزينة ـــ ١٣٢
- أتقاكم: التقوى معيارًا للفضل ـــ ١٣٣
- سورة الحجرات شرح عملي للتقوى ـــ ١٣٤
- سقوط النسب حين ينفصل عن التقوى ـــ ١٣٦
- سقوط المال حين ينفصل عن التقوى ـــ ١٣٧
- سقوط القوة حين تنفصل عن التقوى ـــ ١٣٨
- سقوط العلم حين ينفصل عن التقوى ـــ ١٣٩
- الكرامة التي لا يملك الناس نزعها ـــ ١٣٩
- التقوى والحرية الداخلية ـــ ١٤٠
- إن الله عليم خبير ـــ ١٤١
- خلاصة الفصل ـــ ١٤٢

الفصل الحادي عشر: قالت الأعراب آمنا ـــ الفرق بين دعوى الإيمان وحقيقته ـــ ١٤٤

- قالت الأعراب آمنا ـــ ١٤٥
- ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ـــ ١٤٦
- الإسلام بداية الطريق لا نهايته ـــ ١٤٧
- إن الله غفور رحيم ـــ ١٤٨
- إنما المؤمنون ـــ ١٤٨
- آمنوا بالله ورسوله ـــ ١٤٩
- ثم لم يرتابوا ـــ ١٥٠
- وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ـــ ١٥١
- أولئك هم الصادقون ـــ ١٥٢
- أتعلمون الله بدينكم؟ ـــ ١٥٣
- يمنّون عليك أن أسلموا ـــ ١٥٤
- بل الله يمن عليكم ـــ ١٥٤
- إن كنتم صادقين ـــ ١٥٥
- إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ـــ ١٥٦
- ختام السورة: العودة إلى الداخل ـــ ١٥٧
- خلاصة الفصل ـــ ١٥٨

الخاتمة: المجتمع الذي يبدأ من أدب القلب ـــ ١٦٠

- من «لا تُقدِّموا» إلى «بصير بما تعملون» ـــ ١٦١
- سورة الحجرات: دستور الوجدان ـــ ١٦٥
- السورة التي تنظف الهواء الاجتماعي ـــ ١٦٦
- الأخلاق هنا ليست وعظًا ناعمًا ـــ ١٦٧
- الإنسان في سورة الحجرات ـــ ١٦٨
- مركزية التقوى ـــ ١٧٠
- من الأخوة إلى الإنسانية ـــ ١٧١
- السورة في زمن الضجيج ـــ ١٧٢
- التربية القرآنية لا تفصل الداخل عن الخارج ـــ ١٧٤
- الأدب بوصفه علمًا بالمقام ـــ ١٧٥
- رسالة السورة للكاتب والمفكر والمصلح ـــ ١٧٥
- خاتمة الخاتمة ـــ ١٧٦